ملخص التاريخ القديم

تأليف

نجيب متري

تقديم ومراجعة

د. جلال محمد منصور

صدرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب عام ١٩١٣

الكتاب: ملخص التاريخ القديم

الكاتب: نجيب متري

تقديم ومراجعة: د. جلال محمد منصور

الطبعة: ٢٠١٩

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)



٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة

جمهورية مصر العربية


هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

E-mail: news@apatop.comhttp://www.apatop.com

دار الكتب المصرية

فهرسة إثناء النشر

متري ، نجيب

ملخص التاريخ القديم / نجيب متري ، تقديم ومراجعة: د. جلال محمد منصور

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

٧٣ ص، ١٨ سم.

الترقيم الدولى: ٩ – ٩٠٣ – ٤٤٦ –٩٧٧ – ٩٧٨

أ – العنوان رقم الإيداع : ٢٦٦٥٣ / ٢٠١٨

ملخص التاريخ القديم





تمهيد

التاريخ القديم هي الفترة التي جاءت بعد فترة ما قبل التاريخ، أي ابتداء من الألفية الرابعة قبل الميلاد وحتى العصور الوسطى، وهي محصلة أو مجموع أحداث سابقة بدأت منذ تسجيل التاريخ البشري إلى مرحلة العصور الوسطى المبكرة. وتمتد مرحلة التسجيل البشري إلى ما يقرب من **٥٠٠٠** آلاف سنة مع الكتابات المسمارية السومرية التي تُعتبر الأقدم من بين الكتابات المُتماسكة في التاريخ، والكتابة الهيروغليفية المصرية التي أسهب المصريون في الكتابة بها سواء كانوا ملوكاً أم أناس عاديون، وتُشكل أهم مصدر لمعرفة التاريخ القديم للإنسانية، وكيف كان الناس يعيشون في حياتهم اليومية بين **٣٠٠٠** قبل الميلاد وحتى مولد المسيح عليه السلام..

التاريخ علم يبحث فيه عن حوادث البشر في الزمن الماضي وما وقع للشعوب والقبائل والممالك، وهو ينقسم لثلاثة أقسام كبرى هي:

- التاريخ القديم وهو يتضمن أنباء البشر من أول عهدهم إلى سقوط مملكة رومية الغربية في سنة **٤٧٦** للميلاد.
- تاريخ العصور المتوسطة وهو يمتد من سقوط رومية إلى سقوط الأستانة في يد الأتراك سنة **١٤٥٣** للميلاد.
- التاريخ الحديث وهو يمتد من سقوط الأستانة إلى يومنا هذا.

واستعان عُلماء التاريخ القديم بِطَرِيقَتَيْنِ رَئِيسِيَّتَيْنِ لِفِهِمْ تَارِيخ الْإِنْسَانِ بِشَكْلٍ أَفضلٍ، وهو عِلْمُ الْآثَار؛ ومصَادِر النُّصُوصِ، ونجد أن تاريخ مصر هو أطول تاريخ مُستمر لدولة في العالم لما يزيد عن ٧٠٠٠ عام قبل الميلاد. حيث تميزت مصر بوجود نهر النيل الذي يشق أرضها والذي اعتبر عاملا مساعدا لقيام حضارة عريقة بها، كما تقع مصر بموقع جغرافي مُتميز يربط بين قارتي آسيا وإفريقيا ويرتبط بقارة أوروبا عن طريق البحر الأبيض المتوسط. كل هذا أدى إلى قيام حضارة عُرفت بأنها أقدم حضارة في التاريخ الإنساني. ونجد أن الحضارة المصرية تطورت وتبلورت المبادئ إلى حكومة مركزية حوالي عام ٣٢٠٠ ق. م. حيث قام الملك مينا بتوحيد مملكتي الشمال والجنوب المصريتين. وشهد عصر هذه الدولة نهضة شاملة في شتى نواحي الحياة، حيث توصل المصريون إلى الكتابة الهيروغليفية أي النقش المُقدس، وتأسست ممفيس كأول عاصمة للبلاد واهتم الملوك بتأمين حدود البلاد ونشطت حركة التجارة بين مصر والسودان، واستقبلت مصر عصراً مُزدهراً في تاريخها عُرف باسم عصر "بناة الأهرامات"، وشهد هذا العصر بناء أول هرم في مصر والعالم وهو هرم زوسر المُدرج المعروف بهرم سقارة والذي يُعد أول بنيان حجري في العالم وأقيم عام ٢٨٦١ ق. م، ومع تطور الفن والزراعة والصناعة استخدم المصريون أول أسطول نهري بري لنقل مُنتجاتهم.. وبلغت الملاحة البحرية شأناً عظيماً وأصبحت حرفة مُنظمة كغيرها من الحرف الراسخة التي اشتهرت بها مصر القديمة، وفي هذا العصر حكمت الأسر من الأسرة الثالثة إلى الأسرة السادسة، ومارس الفراعنة لعب الكرة قبل ٣٠٠٠ سنة

قبل الميلاد وكانت تقام عندهم مُسابقات يتوج الفريق الفائز فيها بالذهب. ونجد أنه في العصر ما قبل الحديث أعرب العديد من الناس في كثير من الأحيان عن شعورهم وغرضهم الذاتي عن طريق الإيمان بإله سواء أكان ذلك في شكل إله واحد أو آلهة مُتعددة. ولكن لم يُعتقد أن ثقافات ما قبل العصر الحديث كانت قادرة على خلق شعور فردي مُتميز. وكان رجال الدين الذين كانوا يتقلدون مناصب السلطة كثيراً هم الوسطاء الروحيون للعامة. ولم يكن باستطاعة العامة الوصول إلى الإله إلا عن طريق هؤلاء الوسطاء. كما كان التُراث مُقدساً للثقافات القديمة وظل ثابتاً دون تغيير؛ وكان النظام الاجتماعي الخاص بالمراسم والأخلاقيات الموجودة في الثقافة يُطبق بشكل صارم.. وعلى النقيض من ذلك نجد عصر ما قبل الحداثة حيث انتقلت الحضارة الغربية انتقالاً تدريجياً من عصر ما قبل الحداثة إلى الحداثة عندما تطورت المناهج العلمية التي دفعت الكثيرين للاعتقاد بأن استخدام العلم هو مفتاح المعرفة، ولذلك تحرروا من عباءة الأساطير التي تأثرت بها الكثير من شعوب فترة ما قبل الحداثة. ويرجع الفضل إلى الملاحظة الاستنباطية لاكتشاف معلومات جديدة عن العالم مُقارنة بالاستخدام التاريخي للعقل (فلسفة) والمعرفة الفطرية.

تم ابتكار المصطلح "حديث" بفترة قصيرة قبل عام ١٥٨٥ لوصف بداية العصر الحديث. ويُمثل عصر النهضة الأوروبي (حوالي عام ١٤٢٠ : ١٦٣٠ م) فترة انتقالية مهمة تبدأ في الفترة ما بين أواخر العصور الوسطى وأوائل العصور الحديثة التي بدأت في إيطاليا.

أُدرج المصطلح "أوائل العصر الحديث" في اللغة الإنجليزية في ثلاثينيات القرن العشرين لتمييز الفترة الزمنية بين ما نسميه بالعصور الوسطي وفترة أواخر التنوير (١٨٠٠ م) (عندما بدأ مصطلح العصور الوسطي يتخذ معناه المعاصر). من المهم ملاحظة أن أصل هذه المصطلحات يرجع للتاريخ الأوروبي. ومن ناحية استخدامها في مناطق أخرى من العالم، مثل آسيا والدول الإسلامية، وتنطبق المصطلحات بطريقة مُختلفة جداً، ولكنها غالباً تتعلق بسياق مُتصل بالثقافة الأوروبية في عصر الاستكشافات، وما بين يديك هو كتاب عظيم في ذاته زاخر بإنجازاته يتحدث عن التاريخ القديم بما يحويه من قصص هامة وظواهر غامضة مرت على نوع من البشر صنعوا حضارتهم بأيديهم، وجعلونا ننعم بهذه الحضارة التي وجدت بين أيدينا الآن، لذا وجب دراسة هذه الفترة المهمة من تاريخ البشرية لنعلم ما لها وما عليها كي نتقي الخطأ ونمشي علي الطريق السليم الذي مشوا عليه حتى صنعوا مُعجزات خالدة ما تزال موجودة حتى الآن مثل الأهرامات وما على شاكلتها من آثار عظيمة جعلت من هؤلاء الناس عباقرة عمروا الأرض وسخروها للحصول على ما يُريدون منها، لذا اغتنم الفرصة وانهل الكثير من علم القدماء العظيم الموجود في هذا الكتاب العظيم.

د. جلال محمد منصور

أستاذ التاريخ القديم

كلمة لجامع الكتاب

هذه فصول تاريخية جمعتها من أوثق المصادر وأصحها وهي تتضمن ملخص تاريخ الأمم القديمة وما وقع لها منذ أول نشئها حتى انقراضها، وقد رتبتها ترتيباً يقربها من ذهن القارئ وتوخيت فيها سهولة التعبير والله حسبي ونعم الوكيل .

نجيب متري



الفصل الأول

علم التاريخ

التاريخ علم يبحث فيه عن حوادث البشر في الزمن الماضي وما وقع للشعوب والقبائل والممالك. وهو ينقسم إلى ثلاثة أقسام كبرى: (١) التاريخ القديم وهو يتضمن أنباء البشر من أول عهدهم إلى سقوط مملكة رومية الغربية في سنة ٤٧٦ للميلاد (٢) تاريخ العصور المتوسطة وهو يمتد من سقوط رومية إلى سقوط الأستانة في يد الأتراك سنة ١٤٥٣ للميلاد (٣) التاريخ الحديث وهو يمتد من سقوط الأستانة إلى هذا اليوم.

الفصل الثاني

مصر

مصر هي أسبق ممالك التاريخ مدنية وأعرقها حضارة. وقد أجمع المؤرخون على أن سكانها الأصليين كانوا من بني حام. والأرجح أنهم جاءوها من آسيا بطريق برزخ السويس من الشمال في زمن غير معروف. أما مصادر التاريخ المصري فكثيرة أشهرها خمسة: (١) الآثار وهي بقايا المعابد والقصور والقبور والأهرام المشهورة. (٢) تاريخ هيرودوتس اليوناني الذي عاش في القرن الخامس قبل المسيح وسافر إلى مصر وجال فيها، ولكن جانباً كبيراً من تاريخه خرافي أخذه عن الكهنة. والظاهر أنهم لفقوا له قصصاً كثيرة تتعلق بأسلافهم. (٣) تاريخ منثو الذي كان كاهناً مصريا عرف سر خط الكهنة واطلع على كثير من أخبارهم إلا أن الجانب الأكبر من تاريخه قد فقد. (٤) الكتب المنزلة. (٥) تاريخ ديودوروس اليوناني

تأسيس المملكة

يظن بعض المؤرخين أن بداءة مملكة مصر كانت منذ نحو ٥٠٠٠ سنة، على أن ذلك لم يثبت بعد. ولا يزال العلماء يبحثون عن الآثار لمعرفة ذلك بوجه التدقيق، أما تاريخ مصر فينقسم إلى ثلاثين أسرة أو دولة كما يأتي:

الأسرة الأولى

أجمع المؤرخون على أن مؤسس المملكة ورأس الأسرة الأولى هو الملك مينا الذي كان عرشه أولا في مدينة ثيبة ثم نقله إلى ممفيس بعد أن بناها. قال هيرودوتس أنه سد مجرى النيل وحول النهر إلى مجرى جديد وأدخل عادات جديدة إلى البلاد وهو أول من وضع الشرائع الدينية في مصر وسن نظاما للعبادة فيها. وجاء بعده ثمانية ملوك آخرون إلا أن أخبارهم قليلة لا يعتد بها. وكانت مدة حكم الأسرة الأولى ٢٥٣ سنة

الأسرة الثانية

كانت عاصمة هذه الأسرة ثيبة وعدد ملوكها تسعة حكموا ٣٠٢ سنة، وليس منهم من يستحق الذكر سوى كاكو الملك الثاني الذي أقام عبادة الثور أبيس وعبادة حيوانات أخرى

الأسرة الثالثة

أما الأسرة الثالثة فعاصمتها ممفيس وملوكها تسعة على قول منثو ومدة حكمهم ٢١٤ سنة وأشهرهم الملك شزر الذي بنى هرم سقارة، والملك سنفرو وهو الملك الذي استولى على جانب من جزيرة طور سيناء واستخرج من جبلها النحاس والحجارة الكريمة.

ويظن بعض المؤرخين أن هذه الأسرة كانت معاصرة للأسرة الأولى

الأسرة الرابعة

كانت عاصمة هذه الأسرة مدينة ممفيس، ولها ثمانية ملوك حكموا ٢٨٤ سنة. أما آثارها فهي أهرام الجيزة العظيمة، وهي دليل على أن ملوك هذه الدولة كانوا أقوياء متسلطين على الأمم. وأن مصر كانت يومئذ متقدمة جدا في العلوم والصنائع، وأشهر ملوك هذه الأسرة خوفو الأول الذي بنى الهرم الأكبر. قيل أنه بناه مدفنا لنفسه فجرى على سنته ملوك مصر بعده. ويبلغ ارتفاع هذا الهرم ٤٨٠ قدماً ومساحته ٥٧١.٥٣٦ قدماً مربعة. وقد استغرق بناؤه ثلاثين سنة انقضت عشر سنين منها في تمهيد الطرق لنقل الحجارة من المقالع، وعدد الفعلة الذين اشتغلوا ببنائه مائة ألف عامل أنفقت الحكومة عليهم من الفجل والبصل والثوم فقط ٢٠٠.٠٠٠ جنيه. ويظهر من مشاهدة الهرم أنهم جعلوه في الأول مدرجاً ليتمكنوا من رفع الحجارة إلى رأس البناء، ولما فرغوا منه وضعوا في خلل الدرجات حجارة مثلثة فكمل كل وجه من الهرم وصار سطحه مستوياً، أما الحجارة فإنهم أتوا بها من أصوان على النيل في الأرمات.

أما الهرم الثاني فبناه خفرع أحد ملوك هذه الدولة، وبنى الملك منقارع الهرم الثالث، وهو دون سابقه حجماً، وبقى تابوته داخل الهرم إلى عصرنا هذا، ونقلوه لكي يضعوه في المشهد البريطاني، فانكسرت السفينة التي حملته عند جبل طارق فغرق لكن غطاءه طفا لأنه من خشب.

أما النصب المعروف بأبي الهول فيقال أن بانيه الملك خوفو الثاني لأن اسمه وجد منقوشاً عليه.. هذا ولا ريب أن مصر بلغت في أيام الأسرة الرابعة أسمى المراقي في العلوم والصنائع والسلطان كما يظهر من إمعان النظر في آثارها فإنها أعظم آثار الدنيا القديمة.

الأسرة الخامسة إلى الأسرة العاشرة

ليس في أخبار هذه الأسر ما هو ذو شأن ولا يعلم منها إلا القليل. وقد أجمع المؤرخون على أن مدتها كانت مدة قلق وانحطاط. وإنه لم تقم فيها دولة قادرة على ضبط المملكة كلها. فنتج عن ذلك أن المملكة انقسمت وتجزأت وساد فيها الاضطراب، وأشهر من حكم فيها الملكة نتوكريس. ظهرت في الأسرة السادسة فاستولت على زمام الملك، وملكت اثنتي عشر سنة. وكانت أشرف نساء عصرها وأجملهن. قال هيرودوتس أن أخاها كان ملكاً قتله الأعداء، فملكت مكانه وعزمت على الانتقام، فكتمت غيظها وبنت مجلساً عظيماً تحت الأرض أولمت فيه وليمة فاخرة دعت إليها قاتلي أخيها، ولما هز الطرب أعطافهم أدخلت عليهم ماء النهر في سرب أعدته لذلك فهلكوا عن آخرهم، على أنه لا يبعد أن تكون هذه القصة خرافة.

الأسرة الحادية عشرة والأسرة الثانية عشرة

لم يشتهر من الأسرة الحادية عشرة إلا الملك منتوهوتب الذي فتح التجارة في الجنوب وأرسل عبيده إلى بلاد بونت (وهي على ما يظن البعض

في جنوب جزيرة العرب) فأتوا منها بالذهب والحجارة الكريمة والطيوب. أما الأسرة الثانية عشرة فكانت أقوى من سابقتها. وفي أيامها ارتقت مصر كثيراً، فعادت إلى ما كانت عليه من الشهرة في أيام الأسرة الرابعة، وكانت عاصمتها ثيبة التي زهت في أيامها حتى فاقت ممفيس. أما ملوكها فثمانية ومدة حكمهم ١٦٨ سنة وأولهم الملك أمنمهات الأول الذي غزا بلاد كوش، وأشهرهم أمنمهات الثالث. ومن أعظم آثاره بحيرة ميرس واللابرنث .. أما بحيرة ميرس فكانت في الفيوم وغايتها جمع مياه النيل لري الأراضي بعد ارتداد فيضان إذا لزم. وأما اللابرنث (أي اللغز) فهو بناء عجيب أقامه أمنمهات الثالث قرب قناة البحيرة وله طبقتان، وفيه اثنتا عشرة داراً و١٥٠٠ غرفة من الحجر الصلب وكانت غرفه ودهاليزه عجيبة التركيب؛ فكان من يدخله وهو يجهله لا يقدر أن يجد مخرجاً منه..

الأسرتان الثالثة عشرة والرابعة عشرة

ليس في أخبار هاتين الأسرتين ما يستحق الاعتبار فنضرب عنهما صفحاً ونأتي إلى:

الأسرة الخامسة عشرة إلى السابعة عشرة

وهي أول الهكسوس أي الرعاة، وهم قبائل رحل من جرة العرب، جاءوا إلى مصر ليغزوها بينما كانت البلاد في اضطراب وقلق فاستولوا عليها وحكموا فيها نحو ٥٠٠ سنة، إلا أن أخبارهم قليلة لسببين (١) أنهم كانوا غير متمدنين فلم يهتموا بتشييد الأبنية ولا بنقش الحوادث على

العمد والقبور ليخلدوا ذكرهم كالمصريين. (٢) لأن ملوك الأسرة الثامنة عشرة الذين طردوهم بذلوا كل الجهد في محو آثارهم. قال منثو أن هؤلاء الرعاة ظلموا المصريين وخربوا الهياكل وحملوا الناس على عبادة آلهتهم الغريبة، وذبحوا الرجال واستعبدوا النساء؛فمقتهم الناس إلا أنهم أدخلوا الخيل إلى مصر وعلموا المصريين فنون الحرب. وقد أجمع المؤرخون على أن تغرب بني إسرائيل في مصر كان في أيام الرعاة..

الأسرة الثامنة عشرة نحو سنة ١٧٠٠ ق . م

عاصمة هذه الدولة ثيبة، أول ملوكها عموسيس، وكان بطلاً شجاعاً حارب الرعاة وطردهم من البلاد ثم لحق بهم إلى وطنهم الأصلي، ومن أشهر ملوك هذه الأسرة توثميس الثالث الذي حكم في نحو سنة **١٦٢٥** ق.م وكان محارباً عظيماً فاق كل من سبقه وقام بما ينيف على ثلاث عشرة غزوة. واستولى على **١١٩** مدينة من مدن سورية، ورجع إلى مصر بغنائم كثيرة وشاد الأبنية العظيمة ومنها قصر الأعمدة ومعبد آمون.

الأسرة التاسعة عشرة نحو سنة ١٣٥٠ ق.م

بلغت مصر في أيام هذه الأسرة أعلى زهوها. وأول ملوك هذه الدولة رعمسيس الأول لم يملك إلا قليلاً، ثم خلفه سيتي الأول الذي اشتهر بحروبه العديدة وأشهرها غزواته للعرب حتى وصل إلى ما بين النهرين. ومن مآثره بناؤه هيكل كرنك وحفرة قناة تصل النيل بالبحر الأحمر.. أما أشهر ملوك هذه الدولة فهو رعمسيس الثاني، وآثاره منتشرة

في كل بلاد مصر وسورية وغيرها فيكاد اسمه يرى على كل معبد أو طلل. غزا بلاد النوبة وسوريا وفلسطين، ثم عاهد الحيثيين وتزوج ابنة ملكهم، قيل أنه كان له ١٧٠ ولداً

ومن ملوك هذه الدولة أيضاً منفتاح، ويظنه المؤرخون الملك الذي خرج بنو إسرائيل في أيامه من مصر. ولا عجب من ذكر هذه الحادثة في الآثار لأن الملوك لم يدونوا أخبار مصائبهم

الأسرة العشرون ١٢٠٠ق.م

أول ملوك هذه الأسرة رعمسيس الثالث، وفي أيامه ارتقت مصر، وكان كثير الحروب. غزا الليبيين وآسيا الصغرى وقبرص ومملكة الأدوميين، وبنى مراكب للتجارة وأرسلها في بلاده إذ لم يكن فيها إلا القليل، ولكن المملكة ضعفت في أيام الملوك الذين جاءوا بعده فقام عليهم الكهنة وأسسوا الأسرة الحادية والعشرين وهي المعروفة بأسرة الكهنة، ثم الأشوريون واستولوا على البلاد فأنشئوا الأسرة الثانية والعشرين. وحكموا في البلاد حتى قيام الأسرة الخامسة والعشرين وهي كوشية. وفي سنة ٦٦٣ ق.م أنشأ بسماتيك الأول الأسرة السادسة والعشرين، وفي أيامه نشأت بين مصر واليونان علاقات كثيرة.

الأسرة السابعة والعشرون وما بعدها

الأسرة السابعة والعشرون فارسية بدأت حكمها حوالي سنة ٥٣٠ ق.م وذلك أن الملك قمبيز أخضع مصر وظلم أهلها فأبغضوه وخرجوا عليه، ولم يتم إخضاعهم إلا في أيام الملك زركيس. ولما جاء الملك داريوس عامل القوم باللين والعدل ولكن الملوك الذين جاءوا بعده عمدوا إلى الظلم والاستبداد، فقام عليهم المصريون وطردوهم وأنشأوا الدولة الثامنة والعشرين، إلاّ أن الفرس عادوا إلى مصر واسترجعوا ملكهم فخضعت لهم مصر حتى سنة ٤٠٠ ق.م .

ثم عصت أيضاَ وقامت الأسرة التاسعة والعشرون فطردت الفرس إلاّ أنها لم تدم طويلاً؛ فقامت بعدها الأسرة الثلاثون وملوكها ثلاثة، أولهم نقتنب الأول الذي عاد الفرس في أيامه لاسترجاع البلاد ولكنه تمكن من ردهم. وفي أيام نقتنب الثاني عاد الفرس مرة أخرى إلى مصر فخرج الملك للقائهم ومعه ١٠٠.٠٠٠ رجلا فنشبت بين الفريقين معركة عظيمة بقرب بلوسيوم. فانهزم الملك نقتنب ولجأ إلى الفرار. وهكذا عادت المملكة إلى يد الفرس وبقيت في قبضتهم إلى حين طردهم الإسكندر الأكبر.

العصر المكدوني سنة ٣٣٢ ق.م .

غزا الإسكندر الأكبر بلاد مصر فرحب به أهلها لأنهم كانوا يكرهون الفرس، ولما تم له النصر بنى مدينة الإسكندرية وجعلها ميناء لسفنه. قيل أنه تودد إلى الكهنة كثيراً فكان يزور معابدهم حتى دعوه ابن زفس الإله.

وتنبئوا بأنه سينتصر على العالم، وكانت وفاته ٣٢٣ ق.م فاقتسم قواده الأربعة مملكته فيما بينهم، فحكم بطليموس لاغوس على مصر والممالك الإفريقية وفلسطين

مدنيَّة المصريين

المدنية المصرية قديمة جداً ترجع إلى ما قبل زمن الأسرة الأولى، وقد اشتهر المصريون القدماء بالعلوم والفنون والصنائع فنبغوا في الطب والفلك والهندسة والتحنيط واستخراج المعادن وصناعة الزجاج. وكان للمرأة مقام سام جداً فكانت رأس العائلة، وكان الرجل يسلم امرأته عند الزواج نفسه وأملاكه فلا يقدر أن يبيع شيئاً منها إلّا بأمرها. أما ديانة المصريين فالأرجح أنها كانت في الأصل عقيدة التوحيد، ولكنها فسدت بعد ذلك حتى صار القوم يعبدون الحيوانات ولا سيما الثور الذي اعتبروه من أعظم الآلهة.

الفصل الثالث

الفينيقيون

كانت فينيقية قطعة ضيقة من الأرض واقعة على سواحل سوريا ولها مدن مستقلة يحكم كلاً منها ملك مستقل، وأشهرها صور وصيداء وطرابلس وعكا وغيرها من المدن المخلد ذكرها في التاريخ، واشتهر الفينيقيون في أيامهم حتى بلغت شهرتهم الآفاق، فجابوا البحار وسافروا أسفاراً طويلة فاتسعت تجارتهم وكثرت ثروتهم، وكان لمدينة صيدا التقدم في ذلك فأصبحت شبه عاصمة للمدن الفينيقية.. ولما عظمت مملكة مصر في أيام الدولة الثامنة عشرة والتاسعة عشرة والعشرين خضع الفينيقيون بعض الخضوع لهذه الأسرة على ما يظهر ودفعوا الجزية، أو لعلهم قاموا بخدمة ملوك مصر في البحر بدلاً من الجزية، وكانت سفن المصريين حينئذ فينيقية وملاحوها فينيقيين

ملوك الفينيقيين

أشهر ملوك الفينيقيين هم الذين حكموا في صور وعددهم اثنا عشر، إلا أن أخبارهم قليلة جداً، وأشهرهم الملك حيرام الذي زخرف مدينة صور وحصنها وأصلح مرفأها، وبنى هيكلاً فخماً لمكارتي الإله وهيكلاً آخر لعشتروت وقصراً شامخاً لملوك صور. وساعد الملك سليمان في بناء هيكل أورشليم الشهير وغيره من الأبنية واستولى على جانب من جبل لبنان

واتسعت تجارته كثيراً فشاركه فيها سليمان وصاهره، فقويت ربط المودة بينهما

وفي سنة ٨٧١ ق.م مات الملك مثان. وكان قد وصى بملكه ابنه بجماليون وابنته ألَّسار. أما أهل صور فلم يرضوا ذلك ومنعوا ألَّسار من الملك، وكان أخوها أصغر منها، وتزوجت ألَّسار رئيس الكهنة وكان سامي المقام فحسده بجماليون وقتله، فحدث إذ ذاك حرب بينه وبين أخته ألَّسار دارت فيها الدائرة على ألَّسار وأتباعها، فهربت مع بعض أعيان المدينة إلى شطوط إفريقيا الشمالية وبنوا هناك مدينة قرطاجنة، فملكت ألَّسار فيها إلى حين وفاتها

علوم الفينيقيين وصنائعهم

الفينيقيون هم أول من أخترع أحرفاً هجائية للتعبير عن الأصوات، وإليهم يُعزى اكتشاف العلاقة بين نور القمر والمد والجزر، أما صنائعهم فقليلة، وأهمها صناعة الأرجوان والزجاج التي بلغوا فيها غاية الإحكام، وكذلك اشتهروا بصناعة الآلات المعدنية من الذهب والفضة والنحاس والقصدير.. أما ديانتهم فلم يكن أقبح منها في الأديان الباطلة. وأعظم آلهتهم البعل ومولك (وكانوا يقدمون له الذبائح البشرية) وعشتروت.

الفصل الرابع

اليونان

تاريخ اليونان الخرافي

كانت بلاد اليونان القديمة تتألف من عدة مدن مستقلة يحكم كلاً منها ملك من الأشراف. وكان اليونانيون يعتقدون أنهم سلالة الآلهة، وقد وصلت إلينا أخبارهم فيما تركه لنا شاعرهم هوميروس الشهير، وأهمها أخبار حرب طروادة الشهيرة (وهي مدينة على شاطئ آسيا الصغرى جنوبي بوغاز الدردنيل) وملخص هذه الحرب أن باريس بن بريامس ملك طروادة ذهب إلى أسبرطة في جنوبي بلاد اليونان ونزل ضيفاً على ملكها منلأوس. وبعد أن بقي أياماً في ضيافته خطف زوجته الملكة هيلانة وفر بها راجعاً إلى بلاده؛ فغضب اليونان لذلك واجتمع منهم ١٠٠.٠٠٠ رجلا أقلعوا في ١١٨٦ سفينة إلى طروادة، وكانت حصينة جداً فحاصروها عشر سنين فلم يقدروا أن يفتحوها. ولما يئسوا من أخذها صنعوا فرساً عظيماً من خشب وملأوه بأبطالهم ثم تراجعوا إلى الوراء متظاهرين أنهم تركوا الحرب عجزاً . فلما رآهم أهل طروادة راجعين خرجوا فوجدوا الفرس وأمسكوه وهم يظنونه تمثال إله عظيم وجروه إلى المدينة، فلما خيم الظلام خرج الذين في جوف الفرس وفتحوا أبواب المدينة؛ فدخل اليونانيون وقتلوا ونهبوا أهلها وأحرقوا البيوت ثم رجعوا منصورين، واسترجع منلأوس امرأته

تاريخ اليونان المحقق

يبتدئ تاريخ اليونان المحقق سنة ٧٧٦ ق.م وكانت حكومتها في أول الأمر من النوع الملكي، ولكنها انقرضت في القرن السادس قبل الميلاد في جميع مقاطعات بلاد اليونان ما عدا أسبرطة وحل محلها عصر المستبدين أو الظالمين فاستمر من سنة ٦٥٠ ق. م إلى سنة ٥٠٠ ق.م أما الظالمون فكانوا يدافعون عن حقوق العامة ويساعدونهم في جهادهم مع الأشراف فإذا سقط هؤلاء استأثروا بالعرش وأصبحوا ملوكاً مستبدين، وأشهر أولئك الظالمين بستراتس وولداه هيبياس وهبارخس

شعوب اليونان

كان اليونانيون القدماء يتألفون من قبائل متعددة أهمها الأسبرطيون (أو الدوريون) والأثينيون (أو الآيونيون) وما تاريخ بلاد اليونان إلّا عبارة عن تاريخ هذين الشعبين وما وقع لهما من الحوادث والحروب.. أما الأسبرطيون أو أهل أسبرطة فكانوا يسكنون في القسم الجنوبي من بلاد اليونان. وكانوا يميلون إلى السياسة واعتبروا الرتبة والطائفة واستعبدوا الأدنياء وقسوا عليهم. ومن قوانينهم أن كل إنسان يبقى على الحال التي ولد فيها، ولم يكونوا يهتمون بالعلوم والفنون لأنهم وجهوا كل أفكارهم إلى الحرب والغزوات وقصروا التهذيب على أن يجعلوا شبانهم جنوداً أشداء البأس. وفي نحو سنة ٨٠٠ ق.م ظهر بينهم ليكورغوس المُشرع العظيم، فسن لهم قوانين غريبة حرم بها التجارة والسفر وجعل الرجال جميعهم

عساكر وأقام على البلاد ملكين أو شيخين لكي يكون كل منهما رقيباً على الآخر، أما السلطة الحقيقية فكانت بيد الأشراف، إلا أن هذا النظام اضمحل بمرور الزمن وحل محله نظام "الإيفور" وكان نظاماً استبدادياً

أما الآيونيون أو أهل أثينا فكان لهم ميل شديد إلى الحرية العامة في سياستهم فجعلوا الرعية سواء فيها، واشتهروا بالعلوم والفنون الجميلة والتجارة، وكانوا أقوياء في البحر محبين لوطنهم يقاسون في الدفاع عنه أصعب المشاق. وكان نظام الحكم عندهم في أول الأمر الملكي وآخر ملوكهم الوراثيين قدروس الذي حكم قبل المسيح بنحو ألف سنة ومات في الحرب. وكانوا يحبونه حباً شديداً حتى أنهم لم يريدوا أن يقيموا عليهم ملكاً بعده فأقاموا أرخوناً أي حاكماً وكانوا يختارونه من عشيرة قدروس عدة قرون. وفي منتصف القرن الثامن صاروا ينتخبون كلاً من الأراخنة لعشر سنين فقط. وبقي هذا الترتيب إلى سنة ٦١٣ ق.م. ومن ثم أخذوا ينتخبون تسعة أراخنة كل سنة من رتبة الأشراف، وكان لثلاثة من هؤلاء التسعة أعمال خاصة والباقون بمنزلة قضاة. وكان جميعهم مقيدين بمراقبة مجلس الأمة المعروف بالأريوس باغوس

دراكو

والظاهر أن الأشراف كانوا يظلمون العامة فثار هؤلاء عليهم مراراً وأجبروهم على أن يعينوا رجلاً يسن الشريعة لتكون معلومة عند الجميع؛ فعينوا في سنة ٦٢٤ ق.م رجلاً عادلاً اسمه دراكو؛ فسن لهم شريعة قاسية

أوجب بها شديد العقاب على كل ذنب، ولكن القوم لم يحتملوا هذه الشريعة، فقاموا على دراكو ونفوه من البلاد؛ فاضطربت أحوال السياسة ثانية..

صولون - سنة ٥٩٤ ق.م .

واشتدَّ النزاع بين الخاصة والعامة حتى أصبحت البلاد على شفا ثورة هائلة، واشتدَّ الضيق بسبب شريعة الدين القاسية لأن الربا كان فاحشاً، وكان الدائن إذا لم يستطع المدين الإيفاء يبيعه وأولاده فصار كثيرون من الفقراء عبيداً للأغنياء وأشرف كثيرون على العبودية فعهدوا إلى رجل يدعى صولون أن يصلح الأحوال، فاعتنى أولاً بالمدينين وحررهم جميعاً ومنع عبودية الدين وقسم الناس إلى أربع طبقات باعتبار الثروة وأنشأ مشيخة عدد أعضائها ٤٠٠ ينتخبهم مجمع العامة من الرتب الثلاث الأولى ليقوموا بإجراء الأحكام. والحق أنه هو الذي وضع أساس جمهورية أثينا التي بلغت أعلى مراقي المجد، على أنه لم يقصد بما أتاه سوى أن ينصف الخاصة والعامة معاً ويحفظ السلام بين الفريقين. ولم يخطر في باله أنه سينتج عنه الحكم الجمهوري. وفي أيامه ظهر حكم الظالمين الذي أشرنا إليه سابقاً وأشهر أولئك الظالمين بستراتس.

بستراتس - سنة ٥٦٠ ق. م.

كان بستراتس رئيس حزب الفقراء؛ فدخل ذات يوم إلى مدينة أثينا يسوق بغلاً وكان قد جرح نفسه، فأتى السوق ودمه يسيل وادعى أن

أعداءه حزب الخاصة جرحوه. ثم طلب إلى الناس جنوداً ليحرسوه فأعطوه. ولما تمكن من ذلك واشتد حزبه استولى على قلعة العاصمة واسمها أكربوليس وتحصن هناك، فخافه الناس وهرب رؤساء بقية الأحزاب الأخرى؛ فتولى العرش واستبد بالملك طويلا، إلا أن الأحزاب الأخرى ثارت عليه فيما بعد وطردته. ثم جاء إلى أثينا وملك قليلاً فطُرد مرة ثانية؛ فأعاد الكرة على أثينا بعد عشر سنوات، وكان قد استأجر عسكراً فدخل المدينة ظافراً وملك عليها حتى موته. وكان ملكاً عادلاً قام بنصرة العلوم وهو أول من جمع أشعار هوميروس وصححها.

هبارخوس وهيبياس

وتبعه ابناه هبارخوس وهيبياس وكانا ظالمين؛ فهاجت عليهما الفتنة وقُتل هبارخوس وبقي هيبياس فانتقم لأخيه نقمة شديدة وظلم الناس أكثر حتى سئم الناس حكمه، فقاموا عليه وطردوه من البلاد في سنة ٥١٠ ق.م.

الجمهورية

واستمر النزاع بين الخاصة والعامة، وكان رئيس الحزب الثاني كليسثنيس، وقوي حزب العامة على الخاصة فطردوا أسغراس وتولى كليسثنيس السياسة فغير الحكومة إلى جمهورية محضة وقسم الشعب إلى عشر طبقات تشتمل على كل الناس سوى العبيد، وساوى الجميع في حقوق السياسة وقصر انتخاب الموظفين على مجمع العامة. وزاد عدد

أعضاء المشيخة حتى صاروا ٥٠٠ (أي ٥٠ من كل طبقة) وأبطل أكثر حقوق الأراخنة فلم يبق لهم غير القضاء في بعض الدعاوى. ونظم الجيش وأصلح السياسة الداخلية والخارجية، ولكن خصمه أسغراس استنجد الأسبرطيين فساعده ملكهم كليومينس على طرده فطرد هو و٧٠٠ عائلة من حزبه.

الحرب الفارسية من سنة ٤٩٢ – ٤٨٠ ق. م.

كانت أسباب هذه الحرب ثورة الأيونيين في آسيا الصغرى، ذلك أن الأيونيين استنجدوا أثينا للنجاة من الفرس فساعدتهم بعشرين سفينة وساعدتهم مدينة اريتريا أيضاً بخمس سفن، فلما اجتمع المتحالفون قرب مدينة إفسس بآسيا الصغرى تركوا السفن، وساروا إلى مدينة سارديس عاصمة آسيا الصغرى فأخذوها وأحرقوها، إلا أن الفرس جمعوا جنودهم وأوقعوا بهم فهزموهم شر هزيمة، والتجأ الأثينيون إلى سفنهم وعادوا إلى بلادهم. غير أن اليونانيين في آسيا الصغرى ثبتوا في حربهم، وامتدت الثورة إلى قبرص، فدعا الفرس الفينيقيين إلى الحرب وبعثوهم لإخضاع قبرص فحدثت بينهم وبين بوارج اليونان حرب هائلة انهزم فيها الفينيقيون، إلا أنهم انتصروا براً فالتزم اليونانيون أن يرتدوا ، ثم جمعوا ٣٥٣ سفينة وقابلوا بها أسطول الفرس في لاداي وهي جزيرة صغيرة قرب مليتس، إلا أنهم وقع بينهم شقاق فهزمهم الفرس وأخمدوا ثورتهم.

الحملة الأولى سنة ٤٩٢ ق.م.

وبعد إخماد هذه الثورة أرسل داريوس ملك الفرس قائده مردونيوس بجيش كبير إلى أيونيا لمهاجمة بلاد اليونان، فأتى وعزل الحكام المتسلطين في مدن أيونيا وترك السياسة للناس ليدبروا أمورهم كيفما شاءوا، ولم يوجب عليهم سوى الطاعة والخراج، فعجبوا من ذلك إذ كان خلاف كل ما انتظروه، ثم قطع مردونيوس الدردنيل وسار بجنوده نحو مكدونية وأمر سفنه أن تمر على جزيرة ساموس وتخضعها، ولكن البحر هاج شديداً فتحطمت ٣٠٠ سفينة من سفنه وهلك ٢٠.٠٠٠ رجلا أو أكثر فالتزمت البقية أن ترجع. أما مردونيوس فكبسته قبيلة من برابرة مكدونية وجرح، ولما سمع بانكسار بوارجه رجع خائباً.

الحملة الثانية سنة ٤٩٠ ق. م.

ولما علم داريوس بما كان غضب وعمد إلى جيش أقوى ليؤدب اليونان، وكان هيبياس المنفي من أثينا يحرضه على ذلك رجاء أن يقيمه على كرسي أثينا؛ فجهز داريوس جيشاً كبيراً وعين لقيادته داتس المادي؛ فجمع هذا ستمائة سفينة فيها نحو٢٠٠.٠٠٠ رجلا وسار بها بحراً إلى بلاد اليونان. وبعد أن أخضع الجزائر التي في طريقه وصل إلى شطوط إتكا ونزل بإرشاد هيبياس إلى ماراثون وهي ميناء كبير على أمد نحو عشرين ميلاً من أثينا؛ فقابلهم ملتيادس القائد اليوناني بعشرة آلاف جندي فقط وكسرهم شر كسرة فرجع الفرس خائبين. وأقام الأثينيون أكمة في ميدان

ماراثون حيث دفنوا موتاهم تذكاراً لغلبتهم على الفرس. وأكرموا ملتيادس أشد الإكرام فازداد صولة إلا أنه استخدم نفوذه لغاية شخصية وذلك أنه أراد أن يخرب جزيرة باروس انتقاماً من حاكم إحدى مدنها ولكنه فشل فرجع إلى أثينا خجلاً فاستاء الأثينيون منه والقوة في السجن.

الحملة الثالثة سنة ٤٨٠ ق.م.

وكان حاكم أثينا يومئذ رجلاً حكيماً يدعى ثمستكليس، وإذ رأى أن بلاده لا تستريح من غزوات الفرس إلا إذا كان لديها أسطول عظيم أخذ يحرض الأثينيين على إنشاء البوارج الكبيرة.

واتفق أنه بعد ما انكسر الفرس في الحملة الثانية أراد الملك داريوس أن يعيد الكرة على بلاد اليونان، ولكن ثورة مصر منعته عن ذلك. ولما مات خلفه ابنه زركيس، فجمع جيشاً كبيراً وأسطولاً مؤلفاً من ١٢٠٠ سفينة وبلغ عدد جنوده على ما قيل أكثر من مليونين ونصف– فلما سمعت مدن اليونان بقدومه خاف بعضها فسلم إليه قبل الحرب ولكن أثينا وأسبرطة عزمتا على مقابلة جيشه في تساليا. وكان هناك ممر ضيق يدعى ثرموبلي اعتصم به ليونيداس ملك أسبرطة ومعه جيش صغير جداً، ووقفت سفن اليونان لتمنع أسطول الفرس من إنزال الجيش خلف ليونيداس، وساعد اليونان أن البحر هاج فحطَم معظم سفن الفرس. وكان زركيس واقفاً مع جنوده في تساليا عند مدخل المضيق وقد حاول إخضاع اليونان مراراً فلم يفلح. وإذ ذاك أتى رجل يقال له أفيالتس فخان اليونان وأخبر

الفرس بممر سري فوق الجبل الذي كان فيه مضيق ثرموبلي فتمكن الفرس بذلك من التغلب علي اليونانيين.

أما بوارج اليونانيين فرجعت إلي جزيرة سلامس حيث واقعت أسطول الفرس الكبير فكسرته شر كسرة، فلما رأى زركيس ذلك خاف على نفسه فقفل راجعاً إلى بلاده تاركاً ٣٠٠٠٠٠ رجلا بقيادة مردونيوس.

الحملة الرابعة سنة ٤٧٩ ق. م.

وفي سنة ٤٧٩ ق. م. خرج بوسنياس ملك أسبرطة لمقاومة الفرس فنشبت بين الفريقين معركة عظيمة في سهول بلاتيا قتل فيها مردونيوس نفسه ولم يبق من جيشه إلا نحو ٣٠٠٠ رجلا فقط.

سلطة أثينا

تقدمت أثينا بعد حرب الفرس وعظمت شوكتها حتى أصبحت رئيسة المدن اليونانية، ومنذ ذلك الحين ابتدأ عصرها الذهبي فإن حاكمها بركليس كان محباً للعلوم والفنون، فسعي جهده لترقيتها وزخرف مدينة أثينا بكثير من القصور والأبنية الجميلة وسن قوانين جديدة. وفي أيامه نبغ كثيرون من اليونانيين في الفنون والصنائع ومنهم فيدياس الذي اشتهر بصنعه التماثيل البديعة.

حرب البلبونيسس الأولى - سنة ٤٤١ - ٤٢١ ق.م.

قلنا أن أثينا فاقت سائر مدن اليونان في العلوم والصنائع والقوة فحسدتها المدن الأخرى واستثقلت سلطتها إذ كانت تؤدي لها الخراج كل سنة، فحدثت عدة ثورات لم تلبث أثينا أن أخمدتها، إلا أن أسبرطة أخذت تهيج بلاد اليونان عليها. فاشتدت المنافسة بين المدينتين إلي درجة عظيمة حتى أفضت إلى حربين هائلتين استمرتا أكثر من ربع قرن وهما المعروفتان بحربي البلبونيسس. وكان النصر حليف الأثينيين في أول الأمر، إلا أن طاعوناً هائلاً أخذ يفتك بهم فتكاً ذريعاً فأودى بحياة الألوف من رجالهم. ومع هذا ظلوا منتصرين حتى السنة السابعة، ولكنهم انكسروا في السنة الثامنة فعقدوا هدنة سنة ريثما يصلح الفريقان أمرهما.

حرب البلبونيسس الثانية - سنة ٤٢١ - ٤٠٤ ق.م.

ولما انتهت هدنة السنة عادت الحرب فنشبت بين الفريقين، وكانت أسبرطة قد اتخذت كل الاحتياطات اللازمة فتغلبت على أثينا وألغت سلطتها الواسعة، ومنذ ذلك الحين تسلطت أسبرطة على جميع مدن اليونان. أما أسباب انكسار أثينا في هذه الحروب فأهمها ما يلي:

- المنافسة الشديدة بين زعماء الأمة بعد موت بركليس
- فشل الأثينيين في حملة جردوها بقيادة الكبياديس لإخضاع جزيرة صقلية (سنة ٤١٥ – ٤١٣ ق.م)

- حدوث ثورة أهلية في أثينا سنة ٤١١ ق.م. بسبب مخاصمات الأحزاب
- محالفة أسبرطة مع الفرس

الدولة المكدونية

إلا أن أسبرطة لم تدم طويلاً وذلك لظهور دولة جديدة في الشمال، وهي الدولة المكدونية التي لم تشتهر إلا عند ظهور الملك فيلبس، وكان قد أقام أسيراً بين الثيبيين فتعلم منهم فنون الحرب. ونظم جيشه بعدئذٍ أحسن نظام. وكان سريع الغضب وله امرأة سيئة الخلق فطلقها، مع أنها ولدت له الإسكندر بكره، وتزوج امرأة أخرى تدعي كليوباطرة، وكان الإسكندر أيضاً سريع الغضب يشاجر أباه، وولد لفيلبس ابن آخر من زوجته كليوباطرة؛ فأخذ بعضهم يحرضونه على جعل هذا الطفل ولي عهده دون الإسكندر.

وفي سنة ٣٣٦ ق.م. قتل فيلبس فظن بعضهم أن لابنه الإسكندر يداً في قتله إلا أن ذلك دعوى بلا دليل، فتبوأ الإسكندر العرش وهو في العشرين من عمره

الإسكندر الأكبر ٣٣٦ - ٣٢٣ ق.م.

كان الإسكندر شديد البأس مولعاً بالحروب وقد درس على أرسطوطاليس الفيلسوف الشهير. فلما استتب له الملك أخذ يتوسع في

الفتوحات، فخضعت له معظم بلاد اليونان ما عدا أسبرطة. وفي سنة ٣٣٥ ق.م اضطر أن يحارب البرابرة في الشمال فقهرهم وأخضعهم. وفي السنة التالية عين اتيباتر نائباً عنه في مكدونية وسار إلى أسيا الصغرى لمحاربة الفرس فقابلهم عند نهر غرانكوس الذي يصب في بحر مرمرا وأهلك جيشهم. وفي سنة ٣٣٣ ق.م خرج داريوس بجيش مؤلف من ٦٠٠٠٠٠ مقاتلا وقابل الإسكندر عند مضيق إسوس وقد أيقن بالغلبة على الإسكندر ولكن الإسكندر غلبه وأهلك جانباً عظيماً من جيشه وأسر امرأة داريوس وأمه وعاملهما بكل لطف..

ثم زحف الإسكندر جنوباً لفتح سوريا فحاصر مدينة صور سبعة أشهر وفتحها وقتل معظم أهلها. وفتح غزة أيضاً واستولى علي معظم مدن فلسطين، ثم زحف جنوباً لافتتاح مصر وكانت في يد الفرس فلم يلق صعوبة في افتتاحها لأن المصريين كانوا يكرهون الفرس.

ولما استتب له فتحها بنى مدينة الإسكندرية وجعلها عاصمة حكومته ثم توجه شمالاً راجعاً إلي فينيقية، وكانت السامرة قد أحرقت حاكمها المكدوني فقاصص أهلها وأخضع ثورتها، ثم توجه إلى الفرات فعبره بقرب مدينة الموصل. وفي سنة ٣٣١ ق.م حدثت معركة أربيلا الشهيرة فانتصر فيها على الفرس مع أن جيشهم كان أكثر من جيشه عشرين ضعفاً، ثم سار إلى سوسا عاصمة بلادهم واستولى عليها. وهرب داريوس إلى مدينة اكبتانا ببلاد مادي فتبعه الإسكندر إلى هناك وأخذ المدينة فهرب داريوس،

ولما رأى أتباعه أن ملكهم سيقع في يد الإسكندر قتلوه، فلما جاء الإسكندر ووجد جثته غضب على قاتليه ودفنه بكل احترام

ومنذ ذلك الحين طغا الإسكندر وتجبر، فقتل كثيرين من أعدائه وأصحابه ومنهم أكليتوس القائد الشهير قتله بيده في سمرقند إذ كان قد شرب خمراً حتى سكر، فلما صحا من سكره وعرف ما فعل ندم وانفرد ثلاثة أيام ينوح عليه. ثم قام بغزوات أخرى زادته تعجرفاً وافتخاراً حتى أراد أن يسجد له الناس كإله، فأراد كليستنيس صاحب أرسطوطاليس أن يردعه عن ذلك فاغتاظ منه الإسكندر وقتله.

غزوة الهند سنة ٣٢٧ ق.م.

في سنة ٣٢٧ ق.م عمد الإسكندر إلى مهاجمة بلاد الهند فقطع جبال هندكوش وأخضع سائر القبائل في طريقه وعبر نهر الأندلس. وأراد بورس أحد ملوك الهند أن يقاومه فغلبه الإسكندر وأخذه أسيراً، إلا أنه أطلقه ورد له مملكته فصار من أعوانه، ثم توغل في الهند حتى بلغ البنجاب فقاومه أهلها مقاومة شديدة ولكنه تغلب عليهم فقتل منهم ألوفاً عديدة. وأراد أن يتقدم في البلاد أكثر فامتنع عسكره واضطروه للرجوع فرجع إلى بابل في سنة ٣٢٤. وفي سنة ٣٢٣ ق.م. أخذ يستعد لفتح جزيرة العرب ولكنه مات قبل أن يبلغ أربه، وعلة ذلك أن بعض رفاقه عملوا وليمة فاخرة فظل الإسكندر يسكر ليلتين متواليتين. فاعترته حمى قوية لم تفارقه

حتى مات بعد أيام قليلة، ولما سئل عمن يوصي بالملك بعده نزع خاتمه وأعطاه بردكاس أحد القواد

وكان موت الإسكندر سنة ٣٢٣ ق.م لمضي ١٢ سنة و ٨ أشهر من ملكه و٣٢ سنة من ميلاده، واستولى في هذه المدة القصيرة على جانب عظيم من العالم وقلب أعظم مملكة في الأرض وقتئذٍ في مدة نحو ثلاث سنين وبلغ ما لم يبلغه أحد ممن سبقه، ولا نعلم إلى أين كان يصل لو طالت به الحياة، وهو الذي أدخل اليونان إلى أسيا وربطها بأوروبا على طريقة لم يسبق لها نظير

الفصل الخامس

رومية

أهمية تاريخ رومية

كانت رومية صغيرة وضعيفة في أول أمرها، لكنها تقدمت بالتدريج حتى سبقت كل ممالك العالم وأمست على غاية الذكر والصيت بين الأمم المتمدنة، ولا يخفى ما في تاريخها من الأهمية فإن أسباب تقدمها وتأخرها ظاهرة كل الظهور وتأثيرها في تمدن العالم مما لا يحيط به وصف

تأسيس رومية - سنة ٧٥٣ ق.م.

جاء في خرافات الرومانيين القدماء أن مارس إله الحرب عشق سلفيا ابنة نومتور ملك اللاتينيين الذي كان قد عُزل واغتصبها. فولدت توأمين وهما: روملس، وريمس. وكان لنومتور المعزول أخ يحكم عوضاً عنه واسمه أموليوس، فلما سمع أن سلفيا ابنة أخيه المخلوع قد ولد لها توأمان خاف أن يأخذا منه العرش متى كبرا فأمر عبيده بقتل سلفيا وبطرح ولديها في نهر التيبر.

غير أن النهر حمل التوأمين إلى الشاطئ، واتفق أن ذئبة لاقتهما فحنت عليهما وأرضعتهما إلي أن مر بهما أحد رعاة الملك أموليوس فأشفق عليهما وأخذهما إلى كوخه ودفعهما إلى امرأته، فربتهما حتى كبرا

وأصبحا من أرباب البأس والشجاعة. وحدث يوماً أن ريمس نازع رعاة نومتور فأمسكوه وأتوا به إلى سيدهم مدعين عليه أنه سارق، فكاد يحكم عليه بالقتل لكنه علم في أثناء الفحص أمره وأمر أخيه روملس ففرح بهما وأعطاهما أرضاً بقرب التيبر، فبنيا هنالك مدينة لكنهما تخاصما لأن كل منهما أراد أن يسميها باسمه، فقتل روملس أخاه ريمس وسمى المدينة رومية.

اغتصاب النساء

ولما أكمل روملس بناء المدينة وتحصينها عمد إلى تكثير قومه إذ كانوا قليلين، فدعا إليه المذنبين وقطاع الطرق من القبائل المجاورة وحماهم وصار ملكاً عليهم، ولما استقام له الأمر أراد أن يأخذ لقومه نساء من جيرانهم السبينيين فلم يجيبوه إلى طلبه لأن أكثر رجاله كانوا من السفلة الأوباش، فاحتال عليهم بأن أقام في رومية سوقاً ونادى بعيد لإكرام بعض الآلهة ودعا إليه السبينيين فحضروا مع عيالهم. وفيما هم في غاية المسرة قام عليهم رجالهم واغتصب كل واحد لنفسه بنتاً. فكظم السبينيون غيظهم وانصرفوا إلى أوطانهم ثم أشهروا الحرب بعد ذلك على روملس وقومه فهلك من الفريقين عدد عظيم وانتهت الحرب بمصالحتهما واتحادهما معاً

الملوك الأولون

هذا أهم ما رووه في تأسيس رومية وبداءة أمرها ولا يخفى ما فيه من الخرافات والتخرصات. وحكم روملس أربعين سنة ثم مات فتبعه ملوك آخرون أشهروا حروباً كثيرة ووسعوا سلطتهم واستبدوا بالرعية. وبلغ عدد

الملوك الذين حكموا بعد روملس سبعة آخرهم الملك تركوينس سوبربس الذي حكم من سنة ٥٣٤ – ٥١٠ ق.م. وحارب الشعوب المجاورة وأنشأ المستعمرات العديدة في رومية، ولكن الشعب كرهه لشدة ظلمه فطردوه من البلاد واستبدلوا نظام الحكم الملكي بالنظام الجمهوري

الجمهورية الرومانية سنة ٥١٠ – ٦٠ ق.م

كان على الجمهورية حاكمان يسم كل منهما قنصلاً ويساعدهما في الحكم طائفة من الموظفين والولاة ينتخبهم مجلس الأمة، أما السلطة الحقيقية فكانت في يد السناتوس أي مجلس الشيوخ وأعضاءه من أناس كانوا قبلاً قضاةً. وكان الشعب يتألف من طبقتين كبيرتين وهما الأشراف والعامة. وكان الفريقان متساويين في أول الأمر في الحقوق والوظائف ولكن الأشراف استأثروا بالسلطة بتمادي الزمن واهتضموا حقوق العامة وأثقلوا عواتقهم بالديون والضرائب الباهظة، فنشأت بين الفريقين حروب أهلية دامت طويلاً وانتهت بنيل العامة نصيبهم من الحقوق.

حروب الجمهورية من سنة ٣٤٣ – ٢٩٠ ق.م.

كانت الجمهورية الرومانية منهمكة بمحاربة القبائل الساكنة في الجنوب، وأشهرها قبائل السامنيين الذين وقعت لهم ثلاثة حروب مع رومية انكسروا فيها؛ فسادت رومية على مقاطعات كمبانيا وأيوليا ولوكانيا. وتعرضت لها هنا مدينة تارانتوم وهي أهم مدن المقاطعة المعروفة بمغناغريسيا (أي اليونان الكبرى) فإن أهلها أحرقوا بعض المراكب الرومانية في سنة

٢٨٢ ق.م. فأفضى ذلك إلى حرب انتهت بفوز رومية حتى صار اسمها يلقي الرعب في قلوب القبائل المجاورة

ولما استتب الأمر لرومية وأصبحت سيدة إيطاليا أخذت تتطلب الفتوحات على البحار. واتفق أن بعض الإيطاليين أرادوا فتح مدينة مسينا بجزيرة صقلية التي كانت في يد القرطاجنيين؛ فاستغاثوا برومية فأغاثتهم. وأفضى ذلك إلى حروب طاحنة دارت رحاها بين رومية وقرطاجنة ودامت نحواً من مائة وخمسة عشر عاماً، وهي الحروب المعروفة بالفينيقية. وسنأتي على ذكرها في تاريخ قرطاجنة، ونكتفي بالقول هنا أن تلك الحروب جعلت رومية سيدة الممالك والبحار.

الحروب الأهلية

إلا أن انتشار سلطة رومية كان وخيم العاقبة، فإن الأشراف ازدادوا ظلماً وجوراً واغتصبوا معظم أراضي المزارعين فأخذ هؤلاء يهجرون الزراعة وينزحون إلى رومية ليبحثوا لأنفسهم عن أعمال يرتزقون منها. وكان عددهم يزداد كل سنة حتى أصبح وجودهم خطراً على البلاد. وفي تلك الأيام قام أحد الأشراف وهو طيباريوس أغريقوس (وكان قد اشتهر في الحروب الفينيقية) فأخذ يناصر العامة واقترح على الحكومة أن تنظر في أمرهم قبلما يستفحل الداء. فأشار بتقليل سلطة الأشراف ومجلس الشيوخ وتحسين حالة الفقراء وإعطائهم مستعمرات لسكناهم وتوزيع الحبوب عليهم وتقصير مدة خدمتهم العسكرية وتقديم الأسلحة والثياب لهم مجاناً،

إلا أن هذه الإصلاحات لم ترق في عيون الرومانيين فقاموا على طيباريوس وقتلوه في سنة ١٣٣ ق.م. وبعد ذلك بعشر سنوات أراد أخوه كايوس أن يتبع سياسته ويثأر لموته فوزع القمح مجاناً على العامة، واقترح على الحكومة أن تمنحهم مستعمرتين ليسكنوا فيها ويعمروها، فأحبه الناس في أول الأمر حتى أعادوا انتخابه للقضاء مرتين ولكنه قتل في سنة ١٢١ ق.م. هو و ٣٠٠٠ رجلا من أتباعه

وأعقبت ذلك حروب أهلية عديدة أفضت إلى ضعف سلطة الأشراف وازدياد سلطة العامة. وفي ذلك الزمن ظهر القائد ماريوس الشهير فأنشأ جيشاً دائماً وعُين قنصلاً ست سنوات (من سنة ١٠٤ – ٩٨ ق.م) وأعيد انتخابه لمدة سنة أخرى (من سنة ٨٧ – ٨٦ ق.م) ولما مات تبعه القائد صلا فأصبح دكتاتوراً أي حاكماً مستبداً لمدة أربع سنوات (من سنة ٨٣ – ٧٩ ق.م.)

الحكم المثلث الأول سنة ٦٠ ق.م.

وكان رومية قائد آخر يدعى بومباي حارب في إسبانيا وطارد لصوص البحار وأخضع آسيا الصغرى، فهذا اتحد مع يوليوس قيصر وكراسوس لتقويض سلطة مجلس الشيوخ وتأليف حكومة مثلثة، إلا أن اتفاق هؤلاء الثلاثة لم يدم طويلاً فنشبت بين بومباي ويوليوس قيصر حرب انتهت بانتصار يوليوس قيصر في معركة فرساليا (سنة ٤٨ ق.م.) فهرب بومباي إلى مصر حيث قتل وأما أتباعه فأبادهم يوليوس قيصر واستراح منهم، ثم

وجه عنايته إلى أعدائه الأجانب ولكن رجلاً يدعي بروتس قتله في سنة ٤٤ ق.م.

الحكم المثلث الثاني ٤٣ ق.م.

وكان للقيصر صديق يدعي مرقس أنطونيوس أراد أن يجري على سياسته فخاف مجلس الشيوخ لئلا يستبد بهم كما استبد القيصر ، فعهدوا إلى أكتافيوس حفيد أخت القيصر أن يقاومه. فحاربه أكتافيوس وانتصر عليه ثم عاد إلى رومية يطالب بالقنصلية وكان مجلس الشيوخ قد أباها عليه. وبعد أن نال بغيته اتحد مع مرقص أنطونيوس وقائد آخر يدعي لبيدوس فأنشأ الثلاثة الحكم المثلث الثاني لمدة خمس سنوات وكان ذلك في سنة ٤٣ ق.م. فنال أنطونيوس الشرق وأكتافيوس الغرب وأعطيت مصر والأملاك الإفريقية للبيدوس.

كليوباطرة

ولما كان أنطونيوس في مدينة طرسوس وافته كليوباطرة ابنة أوليتس وهو بطليموس الذي كان يحكم مصر. وكان أبوها قد أوصى لها بالملك بشرط أن تتزوج أخاها، فتزوجته ولكنها لم تلبث أن طردته لأنها كانت داهية غانية؛ فنشبت الحرب بينهما فانهزمت كليوباطرة ولحقت بسوريا وجمعت هناك العساكر وعادت إلى مصر وغلبته وقتلته. فانفردت بالملك على شرط أن تتزوج أخاها الأصغر متى بلغ الحلم، ففعلت إلا أنها سمته وملكت بعده بسلام إذ خفرها يوليوس قيصر وأنطونيوس. وكان أنطونيوس

هائماً بحبها هياماً لا مزيد عليه، فقضى أكثر أوقاته في معاشرتها تاركاً الحرب والسياسة، وحاول أن يجعل الإسكندرية عاصمة الأملاك الرومانية فاستاء الشعب منه ووقع الشقاق بينه وبين أكتافيوس فنشبت بينهما حرب هائلة انتهت بفوز أكتافيوس في موقعة أكتيوم سنة ٣١ ق.م. فهرب أنطونيوس وكليوباطرة وانتحر كلاهما في سنة ٣٠ ق.م. أما أكتافيوس فعاد إلى رومية وجُعل قيصراً وأُعطى لقب أغسطوس أي عظيم (وهو أي أغسطوس قيصر) أول إمبراطور قام على رومية.

الإمبراطورية الرومانية سنة ٣٠ ق.م.

كان أغسطوس قيصر أعدل الذين تبوءوا عرش رومية وفي أيامه اتسعت الإمبراطورية حتى بلغت أقصى حدودها، وفي أيامه أيضاً ولد المسيح وانتشر السلام على أرجاء الإمبراطورية، فكان الشعب يحبه ويحترم أوامره. ونظم الجيش وغزا إسبانيا والجرمانيين. ورتب شؤون الإمبراطورية واهتم بتوطيد دعائمها، وفي سنة ١٤ ب. م. مات فخلفه طيباريوس ابن زوجته ليفيا [١] وهو أول القياصرة الذين لم يغتصبوا الملك. وكان ظالماً سفاك دماء أمر بقتل قائده جرمانيكوس سراً وذلك حسداً منه. وأهلك كثيرين من الأشراف والعامة حتى مقته الناس، وفي أيامه انحطت الإمبراطورية وتولاها الضعف والهوان

[١]) كانت ليفيا زوجة أغسطوس الثانية وكان طيباريوس ابنها من زوجها الأول نيرون فتبناه اغسطوس إذ لم يكن له وارث

وفي سنة ٣٧ ب. م. هلك طيباريوس فخلفه كايوس بن جرمانيكوس، ثم جاء بعده قياصرة آخرون اشتهروا بظلمهم واستبدادهم واضطهادهم للمسيحيين. ولاسيما الإمبراطور نيرون الذي حكم من سنة ٥٤ – ٦٨ ب. م وكان في أول حكمه مستقيماً شديد العدل حتى أحبه الناس ولكنه لم يلبث أن طغا وتجبر فكان يقتل كل من يرتاب في إخلاصه حتى أنه قتل أمه وامرأته الأولى وأكره سِنِكا أحد وزرائه على الانتحار وأحرق مدينة رومية واتهم المسيحيين بإحراقها حتى هاج عليهم الشعب فقتلوا منهم عدداً غفيراً واضطهدوهم في سائر أنحاء الإمبراطورية. وتوغل في الشر والظلم حتى فاق كل من سبقه وتمادى في الإسراف والتبذير حتى نضبت خزينة المملكة فأخذ يقتل الناس لكي يستولي على أموالهم وأتى من المنكرات ما يبرأ منه الشيطان الرجيم. ولما لم يعد مجال للصبر ثارت عليه الرعية فأخمد الثورة وانتقم نقمة فظيعة حتى لم يكن بيت في رومية لم يرتفع منه عويل الثاكلات والنادبات إلى السماء. وفي سنة ٦٨ ب. م. خانه قواده واتفقوا على تولية غلبا القائد الأول في إسبانيا بدلاً منه. فهرب نيرون من رومية واختبأ في بيت أحد العبيد، وأراد أن ينتحر ولكنه كان جباناً فقتله أحد غلمانه وأراح العالم من شره.

وتولى بعده أباطرة آخرون سلكوا ملكه في الظلم والاستبداد، وأشهرهم دومتيانوس الذي حكم من سنة ٨١– ٩٦ب.م. ولم يكتفِ بالجور والاستبداد فقط بل انبعث في الفجور والشهوات وسفك الدماء. وإذ رفض المسيحيون أن يعبدوه أثار عليهم اضطهاداً شديداً. وكان يقيد في دفتره يومياً أسماء من يريد أن يقتلهم، واتفق أن امرأته اطلعت على

الدفتر ذات يوم فرأت اسمها مكتوباً فيه مع أسماء آخرين من خاصته فأخبرتهم بذلك فقاموا عليه وقتلوه. وهكذا انتهى القرن الأول للميلاد وملوك رومية يطغون ويظلمون العباد، ثم أعقبهم ملوك آخرون اشتهروا بالحلم والعدل، ومنهم الإمبراطور تراجانوس الذي حكم من سنة ٩٨-١١٧ب.م. وفي أيامه اتسعت الإمبراطورية وضُمت داسيا (بوهيميا) إليها فامتدت المملكة من نهر الفرات شرقاً إلى سواحل الأتلانتيك غرباً. ومن جزائر بريطانيا شمالا إلى منطقة السرطان جنوباً.

إلا أن أشهر الأباطرة الصالحين الذين ظهروا في المائة الثانية للميلاد هو مرقس أوريليوس (سنة ١٦١-١٨٠ب.م.) وكان فيلسوفاً محباً للعلوم مؤثراً للعدل، إلا أنه لم يخلُ من بعض الظلم فإنه أثار اضطهاداً على المسيحيين لأنهم أبوا أن يقدموا ذبائح لآلهة رومية وحارب الفرثيين والبرابرة وانتصر عليهم فصار أعداء رومية يهابون ذكر الكتائب الرومانية. ولكن المملكة انحطت بعد مدة وتولاها الضعف لجور الحكام وشرورهم. فأصبحت القوة الفعلية في يد الجيش. وتعددت الفتن والقلاقل في الأرجاء المتفرقة حتى لم يعد في وسع الإمبراطورية إخمادها أو تأديب القائمين بها وفي سنة ٣٢٣ب.م. أصبح قسطنطين الأول إمبراطوراً على رومية، فأخذ يسعى لإصلاح المملكة وإرجاعها إلى مجدها السالف؛ فبنى القسطنطينية وجعل المسيحية ديانة الملكة ونفخ في الأمة حياة جديدة، إلّا أنه لم يخلُ من بعض القساوة فإنه قتل ابنه وامرأته وفي أواخر أيامه كثرت الفتن والغزوات على حدود الإمبراطورية، فلما مات لم يبقَ للإمبراطورية أمل في الرجوع إلى

سالف مجدها فانقسمت في سنة ٣٩٥ ب.م. إلى قسمين هما الإمبراطورية الشرقية والإمبراطورية الغربية.

الإمبراطوريتان

أما الإمبراطورية الغربية فلم تعش طويلاً لأن قبائل التونون هاجموها مراراً في القرن الخامس للميلاد حتى استولوا على سائر أملاكها؛ فتنشأ من ذلك ممالك: إسبانيا وايطاليا وغاليا (أي فرنسا) وأما الإمبراطورية الشرقية فعاشت نحو ألف سنة أي إلى حين سقوط الأستانة في يد الأتراك سنة ١٤٥٣ ب.م. هكذا انتهت حياة هذه الملكة العظيمة وكانت أكبر الممالك التي حكمت العالم في الزمن القديم وأعظمها صولة وأوسعها ملكاً، إلا أن جور حكامها قضى على مجدها الباذخ فتضعضع عرشها واندثر ملكها وآلت إلى ما آلت إليه الأمم الغابرة. على أن المدينة الرومانية لا تزال خالدة الآثار، والقانون الروماني لا يزال أساساً لقوانين الأمم المتمدنة، والاجتماع العمراني إنما هو قائم على أنقاض النظام العمراني الذي وضعت رومية أساساته في الزمن القديم.

الفصل السادس

قرطاجنة

تأسيس قرطاجنة سنة ٨٦٠ق.م

ذكرنا سابقاً أن الملكة الّسْار بنت قرطاجنة في منتصف القرن التاسع قبل المسيح، ولم يمضِ على بنائها زمن حتى استولى أهلها على شطوط إفريقيا وبعض جزائر البحر المتوسط والأوقيانوس الأتلانتيكي فأصبحت سلطنة القرطاجنيين عظيمة جداً، واقتضى الحال أن يكون لهم جيش وافر وبوارج كثيرة ولا سيما لأن لصوص البحر كانوا خطراً على تجارتهم في البحار.

أقسام التاريخ القرطاجني

يقسم التاريخ القرطاجني إلى ثلاث مدد تمتد الأولى منها من تأسيس قرطاجنة إلى سنة ٤١٠ ق.م والثانية من سنة ٤١٠ إلى سنة ٢٦٣ق.م والثالثة من سنة ٢٦٩ إلى سنة ١٤٦ق.م.

المدة الأولى من سنة ٨٦٠-٤١٠ق.م.

بلغت قرطاجنة في هذه المدة أوج مجدها وعظمتها فانتشرت أملاكها من جبل طارق إلى القيروان واستعمرت سردينيا ومالطة وبعض أراضٍ في إسبانيا. وكانت جزيرة صقلية كبيرة ذات شأن فطمعت قرطاجنة في إخضاعها ولاسيما لما استوطنها اليونان وشرعوا ينافسونها في التجارة. وفي سنة ٤٨٠ق.م. إذ كان اليونانيون منهمكين في محاربة الفرس هاجم القرطاجنيون جزيرة صقلية ولكنهم انهزموا في معركة همرا الشهيرة.

المدة الثانية سنة ٤١٠-٢٦٩ق.م.

تجددت في هذه المدة حروب صقلية وكانت في أولها شؤماً على قرطاجنة ولكنها انتهت بانتصارها واستيلائها على الجزيرة، إلا أن ذلك أضرَّ بها كثيراً لأن هذه الجزيرة أصبحت فيما بعد سبب حروب دموية بينها وبين رومية كما سنرى

المدة الثالثة سنة ٢٦٩-١٤٦ق.م.

إن حوادث هذه المدة هي أهم ما في تاريخ قرطاجنة لأنها تتناول الحروب الثلاثة العظيمة التي نشبت بين رومية و واستمرت أكثر من قرنٍ، وكانت عاقبتها اضمحلال، وتعرف تلك الحروب بالحروب الفينيقية الثلاثة.

الحرب الأولى سنة ٢٦٤-٢٤١ق.م.

استمرت هذه الحرب ثلاثاً وعشرين سنة اغتصب الرومانيون في أثنائها جزيرة صقلية من يد القرطاجنيين. وكان قائد هؤلاء هملكار الشهير هزم الرومانيين في مواقع شهيرة، إلا أن القرطاجنيين انكسروا في المواقع البحرية حتى أصبحت عاصمتهم تحت رحمة الرومانيين؛ فحاصرها دغلس وضايقها حتى طلبت الصلح، ولكنه ثقَّل عليها الشروط فرفضتها، واتفق أن جاءها رجل ماهر من أسبرطة يسمى زنثيس فشجعها وحثها على مقاومة الرومانيين حتى فوَّض أهلها إليه مقاليد أمورهم؛ فهذب الجيش وأحسن التدبير ثم واقع الرومانيين وهزمهم فكاد يفنيهم وهرب من نجا إلى السفن. ثم توالت النكبات على رومية في البحر وفي جزيرة صقلية حتى كادت تقنط من الانتصار على القرطاجنيين، ولكن بعض أصحاب الغنى والمروءة تبرع لرومية بمال وافر فأنشأت مائتي بارجة وجهزتها للحرب. ثم واقعت القرطاجنيين فغلبتهم وشدَّدت الوطأة عليهم حتى اضطرتهم لقبول صلح شائن من شروطه أن يخلوا صقلية وما يليها من الجزائر الصغيرة، ويعطوا رومية غرامة باهظة. وهكذا انتهت الحرب الأولى بين رومية وبعد أن تلف فيها خمسمائة بارجة، وسبعمائة برومية، وهلك خلق كثير من الفريقين. وبذل كل من المال ما لا يحصره العدّ. وعظم شأن رومية وذاع صيتها لأنها بلغت المقام الأول في العالم بحراً وبراً، ومهدت الطريق للاستيلاء على كل المسكونة.

الحرب الثانية سنة ٢٢١-٢٠٢ق.م.

وتوفي هملكار قبل انتهاء الحرب الأولى، وخلفه ابنه هانيبال القائد الشهير، فلما استقام له الأمر تهيأ لمهاجمة رومية، وعزم أن يسير إليها براً من إسبانيا. وكان على شواطئ إسبانيا الشرقية مدينة عظيمة تسمى ساغنتم، وهي حليفة لرومية، فهاجمها هانيبال وافتتحها غير مبال بتهديدات رومية التي لم تستطع حمايتها، فنشأت عن ذلك الحرب الثانية.

ولما فرغ هانيبال من حرب ساغنتم استعد لإنجاز مقاصده العظيمة، فحشد جنوده وكانت تسعين ألف رجلا واثنتي عشر ألف فارسا وسبعة وثلاثين فيلا. وسار بها شمالاً وقطع أبيروس؛ فقاتله قبائل تلك النواحي وأعاقوه أربعة أشهر ولكنه تغلب عليهم وسار حتى وصل جنوبي غاليا. وبعد معارك صغيرة أخذ يجتاز جبال الألب، فكابد هو وجيشه من المشقات ما لا يوصف، لأن مسالك الألب كانت شاقة جداً، والبرابرة يضايقونه والثلج يعوقه والبرد يفتك برجاله وأفياله حتى لم يبقَ معه بعد عبوره جبال الألب غير عشرين ألف رجل وستة آلاف فارسا وسبعة أفيال، ومع ذلك انتصر على الرومانيين في ثلاث معارك هائلة وهي معارك: تسينة، وتريبية، وتراسمينة. فلما بلغت رومية أخبار تلك المعارك أخذ منها الخوف والدهشة كل ما أخذ؛ فجهزت جيشاً عظيما من العجائز والعبيد والمسجونين وكل من استطاع حمل الأسلحة فأراد هانيبال أن يثير القبائل الإيطالية على رومية ولكنه لم يفلح فعمد إلى حيلة لعله يبلغ بها مرامه، وهي أنه زحف على رومية كأنه يريد افتتاحها فارتعد الرومانيون ولكنهم

ثبتوا في الدفاع. فلما رأى هانيبال أن حيلته لم تنجح رفع الحصار ورجع عن رومية بعد أن نهب حقولها وسلب ما خفَّ حمله وغلا ثمنه.

وفي سنة ٢١٦ق.م. حدثت موقعة كانيه المشهورة، وكان الجيش الروماني فيها أضعاف جيش هانيبال، إلا أن هانيبال فاز بنصر عظيم فأفنى جانباً كبيراً من الكتائب الرومانية، ولكنه علم أن لا رجاء له ببلوغ غايته ما لم يأته المدد من أخيه هزدروبال في إسبانيا. فأما هزدروبال فلم يستطع إسعافه لأن شيبو القائد الروماني حال دون ذلك. وفي سنة ٢٠٧ق.م. حدثت معركة متورس التي قتل فيها هزدروبال، ومنذ ذلك الحين لم تقم لهانيبال قائمة فظلَّ في إيطاليا أربع سنوات أخرى يحارب ويقاتل. وأخيراً رأى الرومانيون أن لا خلاص لهم منه إلا بمهاجمتها نفسها ففعلوا ذلك، فاستدعته ليدافع عنها فذهب ولكنه لم يكن معه جيش يستطيع أن يعتمد عليه.

فحدثت بينه وبين شيبو معركة هائلة بقرب مدينة زاما انتهت بفوز الرومانيين، فلم يبقَ له بعد تلك المعركة الفاصلة سوى التسليم، فخضعت تحت شروط ثقيلة أهمها

(١) أن تسلم كل أملاكها التي خارج إفريقيا

(٢) أن تتعهد أن لا تثير حرباً البتة ما لم تسمح رومية بذلك

(٣) أن تدفع غرامة سنوية (قدرها ٤٨.٨٠٠جنيه) إلى خمسين سنة

(٤) أن تسلم بوارجها وأفيالها.

هكذا انتهت الحرب القرطاجنية الثانية بعد أن دامت نحو سبع عشرة سنة وهلك فيها خلق كثير. قيل إن هانيبال أهلك من الرومانيين في حروبه في ايطاليا نحو ثلاثمائة ألف ما عدا الألوف الذين هلكوا في إسبانيا وإفريقيا وغيرهما.

الحرب الثالثة سنة ١٤٩-١٤٦ق.م.

ثم عادت فانتعشت بعد نكبتها وزادت ثروتها، فحنق عليها التجار الرومانيون وأصحاب السياسة وأرادوا خرابها. إلا أن كانت شديدة الاحتراز عما يغيظ رومية، فأخذت رومية تثير ملك ترميديا عليها ولا تستطيع محاربته بدون إذن من رومية؛ فلما اشتدَّ بها الحال قامت وحاربته بدون سماح من رومية، فاتخذت رومية هذا علة للحرب، فلما علمت بذلك توسلت إليها أن تعفو عنها. فأمرتها أن تبعث إليها ثلاثمائة من خاصتها رهناً فأجابت، ثم عادت فطلبت تسليم أسلحتها ومهماتها الحربية ففعلت أيضاً. ثم نزل جيش الرومانيين المدينة وأمروا أهلها بأن يخلوها وينتقلوا إلى مقر آخر يبعد نحو١٣ ميلاً عن البحر فتخرب. فلما سمعوا ذلك استفزهم الغضب وتعاهدوا أن لا يسلموا. قيل أن نساءهم نزعنَ شعورهنَّ الطويلة وصنعنَ منها أوتاراً للقيّ. ودافع القرطاجنيون عن مدينتهم دفاع الأبطال حتى ذهب الرومانيون وكادوا يقنطون من افتتاح المدينة. ولكن حرباً أهلية نشبت في المدينة فتمكن الرومانيون من دخولها وأحرقوها وهدموا سائر

أبنيتها وباعوا من بقي من أهلها عبيداً. وأمرت رومية شيبيو الأصغر (حفيد شيبيو الأكبر) بأن يدك المدينة إلى الأرض ولا يترك فيها حجراً على حجرٍ، فأطاع هذا الأمر حتى أصبحت المدينة تلٌ خراب. وبكى شيبيو عليها إذ كان كريم الأخلاق ولم يستحسن زوال مدينة عظيمة مثلها. وهكذا زالت الأمة القرطاجنية واندثر عرش مجدها.

الفصل السابع

الفتوحات الإسلامية

العرب

العرب هم من نسل سام ما عدا بعض قبائل صغيرة جداً من سكان جزيرة العرب، وهم ينقسمون إلى عرب بائدة وعرب عاربة وعرب مستعربة، فالعرب البائدة هم الأعراب الذين بادوا ودرست آثارهم. والعرب العاربة هم الأعراب الحقيقيون الذين أزالوا العرب البائدة عن موضعهم.

والعرب المستعربة هم الذين انضموا إلى العرب العاربة من الأمم المجاورة وليسوا عرباً في الأصل وقد كان لملوك الأسرة الثامنة عشرة المصرية علاقات مع العرب البائدة فإن بلاد بونت التي غزاها توثميس وغيره من ملوك مصر في نحو سنة ١٦٠٠ ق. م. هي على الأرجح بلاد اليمن.

تجارة العرب

كانت تجارة العرب في العصور القديمة عظيمة جداً كما يظهر من آثار مصر، فكان أهل اليمن يتاجرون مع المصريين والهنود الفينيقيين. وفي أيام الأسرة الثامنة عشرة المصرية أنشأ ملوك مصر مراسي أمينة على البحر الأحمر، وفتحوا ترعة من خليج السويس إلى النيل، فارتقت تجارة اليمن

كثيراً وظلت ناجحة حتى أواخر أيام الأسرة التاسعة عشرة بمصر. أما تجارة العرب مع الفينيقيين فكانت في نجاح عظيم ولاسيما في أيام الملك سليمان إذ شارك حيرام ملك صور فيها، وشاع يومئذ خبر سليمان ومجده وحكمته، فقصدته ملكة سبأ بهدايا عظيمة، قيل أنها خضعت له وسلمت له ملك اليمن غير أن هذا بعيد الظن.

دين العرب

كان دين العرب الغالب قبل الإسلام: الوثنية، وكان لكل قبيلة صنم خاص يعبدونه كاللات (لثقيف) العزّى (لقريش وبني كنانة) ومناة (للأوس والخزرج) وهلم جرا، على أنه كان بينهم قوم يدينون باليهودية وآخرون يدينون بالنصرانية.. وفي سنة ٥٧١ ب. م ولد نبي المسلمين في مدينة مكة فلم يكد يترعرع حتى أخذ يدعو العرب إلى دين التوحيد ويحارب ضلالاتهم الوثنية. وفي سنة ٦٣٢ ب. م توفي بعد أن أخضع بلاد العرب لحكومة واحدة وديانة واحدة.

الخلفاء الراشدون

(١) أبو بكر: سنة ٦٣٢– ٦٣٤ ب. م. كان أبو بكر أول الخلفاء الراشدين، حكم سنتين أخضع في خلالهما سائر قبائل العرب ثم أرسل جيشاً كبيراً بقيادة خالد لمحاربة الفرس فتغلب عليهم، ثم أشهر الحرب على سورية فانتصر على جيش هرقل وأخضع بلاده.

(٢) عمر: سنة ٦٣٤– ٦٤٤ ب. م ولما تولى عمر الخلافة أخذ يتوسع في الفتوحات فأتم إخضاع سورية وفلسطين وافتتح ما بين النهرين ثم زحف بجيشه على مملكة الفرس فحدثت بينه وبينهم موقعة القادسية الشهيرة فانهزم الفرس تاركين عدداً كبيراً من القتلى. وفي سنة ٦٣٨ بنى عمر مدينتي البصرة والكوفة في وادي الفرات. ثم شبت الحرب مرة أخرى بين الفرس والعرب فانكسر الفرس شر كسرة في معركة نهاوند ولم تقم لهم بعد ذلك قائمة. ثم وجه عمر همه لفتح مصر فأرسل قائده عمرو بن العاص لغزوتها، وكانت منذ عهد كليوباطرة خاضعة للرومانيين إلا أنهم أهملوا شأنها فلم يحصنوها فهاجمها عمرو في أواخر سنة ٦٣٩ من طريق الدلتا فأخضع بلبيس، ثم هاجم حصن الرومانيين المعروف ببابليون فافتتحه بعد حصار سبعة أشهر، ثم زحف في سنة ٦٤٠ ب. م. على الإسكندرية فحاصرها أربعة عشر شهراً وافتتحها عنوة. وكان عمرو أول حاكم عربي على مصر وكان حكمه مقروناً بالعدل وسمح للأقباط والرومانيين بإقامة شعائرهم الدينية بشرط أن يدفعوا الجزية.

(٣ و٤) عثمان وعلي: وفي سنة ٦٤٤ ب.م. قُتل الخليفة عمر، قتله فيروز (أبو لؤلؤة) عبد المغيرة فخلفه عثمان وولي الخلافة حتى سنة ٦٥٦ ب.م. ثم قُتل وخلفه علي الذي ولي الخلافة حتى سنة ٦٦٠ ب.م. وقُتل علي أيضاً فخلفه ولده الحسن والحسين واقتفيا آثاره في السياسة. وفي سنة ٦٨٠ قُتل الحسين في موقعة كربلاء وظل خلفاؤه يثيرون الاضطرابات حتى انقرضت بسببهم الدولة الأموية.

فتح إسبانيا

في أوائل القرن الثامن كان موسى بن نصير عاملاً (أي حاكماً) على بلاد المغرب، واتفق أنه حدثت حرب أهلية في إسبانيا بين أمير كردوفا وفيتزا ملك الغوث انتصر فيها رودريك (أولزريق) ابن أمير كردوفا، فدعا أولاد الملك فتزا موسى بن نصير لمحاربة الأندلس، فأرسل موسى جيشاً بقيادة طارق بن زياد فافتتح البلاد وحارب الملك رودريك وانتصر عليه في موقعة زيريس في سنة ٧١١ ب. م.

ولما تمكن المسلمون من الأندلس زحف عبد الرحمن قائد جيوش المسلمين فعبر جبال البرنيز وأخضع جنوبي فرنسا. ولكنه التقى بالجيش الفرنساوي في مدينة طور بقيادة شارل مارتل فحدثت بينهما معركة هائلة دامت سبعة أيام وقتل فيها عبد الرحمن، ثم جاء پين بن شارل مارتل فطرد العرب من سائر مدن فرنسا فتراجعوا إلى إسبانيا، وبقيت إسبانيا في أيديهم مدة خمسة قرون ثم طردهم الإسبان فانتهى بطردهم حكم العرب في أوربا.

أسباب اندثار مملكة العرب

أما أسباب اندثار مملكة العرب فكثيرة أهمها (١) أن الخلافة لم تكن وراثية بل انتخابية فكان الكثيرون يدسون الدسائس ليحصلوا عليها (٢) أن مملكة العرب كانت مترامية الأطراف يصعب إدارتها على نظام واحد (٣) أن هذه المملكة ظهرت في زمن كانت فيه جميع ممالك العالم تطلب الغزو والفتوحات.

الدولة الأموية سنة ٦٦١ – ٧٥٠ب.م.

أسس هذه الدولة معاوية بن أبي سفيان الأموي فاستمرت واحداً وتسعين عاماً تولى في خلالها أربعة عشر خليفة، وكانت عاصمتهم دمشق، وأراد معاوية أن يفتح الأستانة فأخذ بعض الجزائر اليونانية وحاصر الأستانة سنتين ولكنه ارتد خائباً بعد أن خسر جميع مواكبه وجيوشه وعقد صلحاً وتعهد لملك القسطنطينية أن يدفع له خراجاً عن ثلاثين سنة.

ومن أفاضل ملوك هذه الدولة عبد الملك بن مروان وهو أول من ضرب النقود الإسلامية. حكم ثلاث عشرة سنة ثم جاء بعده ابن الوليد الذي بنى الجامع الأموي الشهير بدمشق. وفي أيامه امتدت فتوحات الإسلام في إفريقيا وبلاد الأندلس، وكان موسى بن نصير عاملاً على إفريقيا من قبل الوليد، وكانت نهاية الدولة الأموية ٧٥٠ت.م.

الدولة العباسية سنة ٧٥٠ – ١٢٥٨ق.م.

في سنة ٧٥٠ب.م. حدثت حرب أهلية بين مروان بن مُحَمَّد آخر ملوك الدولة الأموية وعبد الله بن مُحَمَّد السفاح، وهو من نسل عباس عم النبي مُحَمَّد، فدارت الدائرة على بني أمية، وتبوأ السفاح سرير الخلافة. وكان رجلا شجاعاً محبوباً من جميع الناس ولما مات تولى بعده أخوه المنصور أبو جعفر وكان رجلاً عالماً كريم الأخلاق وهو الذي بنى مدينة بغداد وجعلها دار الخلافة. وكانت أعظم مدن الإسلام.

وفي سنة ٦٨٦ت.م. تولى الخلافة هارون الرشيد وهو أشهر ملوك هذه الدولة، وكان ملكاً عاقلاً عالي الهمة كريم السجايا يحب الشعراء ويميل إلى العلماء، وفي أيامه اتسعت دولة الإسلام وانتشرت التجارة والعلوم والآداب ونُقلت المؤلفات الفلسفية والعلمية من اللغة اليونانية إلى اللغة العربية، ونشأت بينه وبين شارلمان ملك فرنسا مودة عظيمة فكان الرشيد يكاتبه ويهاديه. قيل أنه أهدى له شطرنجاً ثميناً وساعة شمسية من مخترعات بلاد الشرق ومزروعات كثيرة غير معروفة في الغرب، وأرسل إليه أيضاً مفاتيح كنيسة القيامة في القدس.

وكان الرشيد محباً لرعيته مهتماً بما فيه راحتها، فكان يطوف في أسواق بغداد وشوارعها ليلاً وهو متنكر ليقف على أحوال الناس ويعرف أحوالهم. وكان قد استوزر يحيى بن خالد البرمكي ويحب ولده جعفر، فكثر حساد جعفر ووشوا به إلى الخليفة حتى نفر منه وقتله ثم قبض على أبيه وإخوته وأهله وأهلكهم، إلا أنه ندم على ذلك ندماً شديداً.

وفي سنة ٨٠٩ ب.م. توفي الرشيد فتولى بعده ابنه الأمين. وكان ضعيف الرأي منصرفاً إلى اللذات، فوقعت بينه وبين أخيه المأمون حرب أهلية قتل فيها، فتولى المأمون الخلافة بعده. وكان رجلاً كريم الأخلاق محباً للعلماء كثر الغزوات، فإنه غزا صقلية وافتتح جزيرة كريت. واستمرَّ بالخلافة نحو عشرين سنة، ثم مات فقام بالخلافة بعده المعتصم بالله فاستخدم جيشاً كبيراً من الأتراك للمحافظة على المملكة. وظلَّ الأتراك

يكثرون حتى قويت شوكتهم وأصبحوا أصحاب الأمر والنهي في البلاد، فضعفت الدولة العباسية وتولاها الوهن.

وفي سنة ١٢٥٨ب.م. زحف هولاكو ملك التتر على العراق ففتحها، ثم قصد بغداد فحاصرها وافتتحها وقتل المستعصم (آخر خلفاء العباسين) ونهب المدينة وبلغ عدد القتلى على ما قبل نحواً من المليون ونصف. ونهب التتر من قصور الخلفاء وخزائنهم أموالا من بني العباس إلى ملوك التتر بعد أن تولى من العباسيين بمدينة بغداد سبعة وثلاثون خليفة.

الدولة الفاطمية سنة ٩٥٣- ١١٧١ب.م.

عدد خلفاء هذه الدولة أربعة عشر أولهم عبيد الله المغربي. قيل أنه من سلالة علي وفاطمة، تولى سنة ٦٥٣ب.م. فافتتح البلاد المصرية ثم جاء بعده المعز فأرسل قائده جوهر الصقلي لاستخلاص مصر من يد الإخشيديين فاستخلصها ثم بنى مدينة القاهرة لتكون عاصمة للخلافة وأسس فيها جامع الأزهر.

وفي سنة ٩٦٥ب.م. حدثت بينه وبين الإخشيديين موقعة بقرب القاهرة فانتصر عليهم حتى لم تقم لهم بعد ذلك قائمة. وحكم المعز ثلاثاً وعشرين سنة. ثم جاء بعده ابنه وكان محباً للعلوم والعلماء ومقيماً للعدل. وبعد أن حكم إحدى وعشرين سنة توفي فخامة ابنه الحاكم بأمر الله. وكان في أول أمره عادلاً ولكنه اندفع بعد ذلك إلى الظلم وصار يفعل أموراً تدل على الجنون. قيل إنه مرَّ ذات يوم بحمام سمع فيه ضجيج النساء. فأمر

بسدّ أبواب الحمام حتى ماتت النساء داخله. ونهى الناس عن بيع الزبيب والعنب وأكل الملوخية والقرع وأمر بقتل الكلاب وأجبر النصارى أن يلبسوا الثياب الصفراء وتهدد اليهود بالقتل إن لم يدخلوا في الإسلام فأسلم منهم عدد غفير. ثم أمرهم بالرجوع إلى ديانتهم فارتدَّ منهم سبعة آلاف نفر. وادعى الألوهية وعلم الغيب وأمر الناس أن يقفوا له عندما يذكر الخطيب اسمه على المنبر. ولما ضجر الناس منه احتيالات أخته على قتله فاتفقت مع الأمير سيف الدين فأرسل هذا غلمانه فكمنوا له عند جبل المقطم وقتلوه.

وفي خلافة المستنصر حدثت في مصر مجاعة عظيمة فصار الناس يأكلون الكلاب والقطط وسائر الحيوانات التي تصل إليها أيديهم. وكانت الكلاب تدخل البيوت تأكل الأطفال وآباؤهم لا يستطيعون النهوض لإنقاذهم من شدة الجوع. وكان في مصر حارة فيها عشرون بيتاً بيعت كلها بطبق خبز فسميت من ذلك اليوم حارة الطبق، وركب الوزير بغلته ذات يوم وأتى إلى دار الخلافة فلما نزل أخذها غلمانه وأكلوها. ودامت خلافة المستنصر ستين سنة وهي أطول خلافة في الإسلام. ثم توفي فخلفه المستعلي أحمد وفي أيامه بدأت الحروب الصليبية فأرسل قائده الأفضل لمحاربة الصليبيين، ولكنه انكسر في موقعة عسقلان وهرب فطارده الصليبيون حتى بلغوا حدود مصر في خلافة الأمير علي منصور. وكان آخر خلفاء الفاطميين العاضد بالله وفي أيامه انقرضت الدولة الفاطمية وجاءت بعدها الدولة الأيوبية.

الدولة الأيوبية سنة ١١٧١

أسس هذه الدولة صلاح الدين الأيوبي الشهير، وكان كردي الأصل عظيم النفوذ، وفي أيام العاضد آخر خلفاء الفاطميين كانت مصر مقسومة إلى قسمين يحكم على أحدهما رجل يقال له درغام. وعلى الآخر رجل يقال له شاور. وكان بين الاثنين منافسة شديدة فاستنجد شاور نور الدين سلطان دمشق فأرسل إليه نور الدين قائده شيركوه لمساعدته، فجاء وأعان شاور وتغلبا على درغام. ثم صار شاور يخشى بأس شيركوه فاستنجد عاموري ملك القدس الصليبي فأعانه عاموري على طرد شيركوه من مصر، إلا أن شاور صار يخشى بأس عاموري أيضاً فاستصرخ السلطان نور الدين مرة أخرى، فأرسل إليه شيركوه وصلاح الدين فأتيا وأعاناه على طرد الصليبين. إلا أن شاور قتل وحوصر صلاح الدين في الإسكندرية واضطره الصليبيون أخيراً أن يخرج من مصر. ثم دخل الملك عاموري إلى مصر ظافراً وأحرق الفسطاط وحاصر القاهرة . فاستنجد العاضد السلطان نور الدين. فأرسل شيركوه وصلاح الدين لمساعدته . فأجبرا عاموري على رفع الحصار وأصبح صلاح الدين منذ ذلك الحين حاكما على مصر

ولما توفي السلطان نور الدين حل صلاح الدين محله وقام وصياً على ابنه. ثم اشتبك في محاربة الصليبيين ولكن بلدون ملك الفرس كسره واضطرَّه للانهزام. وفي سنة ١١٨٢ ب. م. فتح ما بين النهرين ثم عاد إلى السامرة فأخضعها وحاصر الكرك وأرسل ابنه الأفضل إلى الناصرة لمحاربة الصليبيين فهزمهم، ثم زحف صلاح الدين بثمانين ألف مقاتل لمحاربة

الصليبيين، فالتقى الجيشان بقرب بحيرة طبريا وانكسر الصليبيون، فسقطت إذ ذاك عكا وأريحا ويافا والقيصرية وبيروت وغيرها من المدن في يده

وفي سنة ١١٩٣ ب. م. توفي صلاح الدين عن سبعة وخمسين عاماً قضاها في الحروب والغزوات ومكافحة الصليبيين، وكان رجلاً عالي الهمة كريماً محباً للعدل رءوفاً بالفقراء وزع أمواله عليهم ومات فقيراً، ومن آثاره سور القاهرة وقلعتها وإصلاحه بحر يوسف.

خلفاء صلاح الدين

ولما توفي صلاح الدين خلفه ابنه العزيز؛ فحكم ست سنوات، ولكنه تخاصم مع إخوته. فاغتنم عمهم سيف الدين الفرصة وأصبح ملكا على مصر، وفي أيامه حدثت مجاعة عظيمة في مصر؛ فكان الناس يأكلون لحوم الكلاب والحيوانات وينبشون القبور ويأكلون جيف الأموات ويختطفون الأطفال فيذبحونهم ويأكلونهم جهاراً وفي سنة ١٢١٧ توفي سيف الدين فخلفه ابنه الكامل، وهو الذي انتصر على الصليبيين، وأسس مدينة المنصورة تذكاراً لنصرته وكان رجلاً عادلاً محباً للعلوم، حكم واحداً وعشرين عاماً ثم مات.

المماليك

هم طائفة من العبيد حكموا مصر زماناً طويلاً، وكانوا على نوعين: المماليك البحرية أو الأتراك، والمماليك الشراكسة؛ فحكم المماليك

الأتراك من سنة ١٢٥٠ إلى سنة ١٣٨٨ ب. م. وحكم المماليك الشراكسة من سنة ١٣٨٨ إلى سنة ١٥١٧ ب. م. أما الأتراك وعددهم ١٢.٠٠٠ فكان قد جاء بهم إلى مصر الملك الصالح آخر ملوك الدولة الأيوبية، وكان له زوجة تدعى شجرة الدر وهي المرأة الوحيدة التي ارتقت إلى سرير الملك بين المسلمين فلما مات زوجها قتلت ابنها طوران وتزوجت الأمير عز الدين أيبك وزير زوجها، ولكن المماليك استاءوا منها فخلعوها وأقاموا زوجها ملكاً بدلاً منها، فاحتالت عليه وقتلته، فقام عليها المماليك وقتلوها

ومن أشهر ملوك هذه الدولة الملك الظاهر بيبرس تولى العرش سنة ١٢٧٧ب. م، وكان كثير الغزوات حارب الصليبيين وأخرجهم من الديار الشامية. وشن الغارة على بلاد التتر وأخضع أرمينية وبلاد النوبة وقام بمشروعات جليلة في مصر، إلا أنه كان شديد الوطأة على مخالفيه في الدين

ومن ملوك هذه الدولة أيضاً السلطان حسن حكم قليلا ثم تغلب عليه أخوه فطرده من الملك، إلا أنه عاد فاسترجع سلطته ثم قتله المماليك في جامعه بقرب القلعة

أما المماليك الشراكسة فأول ملوكهم الظاهر سيف الدين برقوق حارب تيمور ملك التتر وأنقذ سلطان بغداد منه، وفي سنة ١٤٧١ ارتقى الملك الأشرف الأول إلى العرش فحكم سبعة عشر عاماً وفي أيامه غزا الأتراك مصر فرجعوا عنها خائبين وفي سنة ١٥١٠ ب. م. أشهر السلطان

سليم الأول بن بايزيد حرباً على مصر وكان أخوه قورقود قد التجأ إليها، فحدثت بين المصريين والأتراك معركة هائلة بقرب حلب انتصر فيها سليم الأول وفشل الملك الأشرف الثاني. ثم تولى طومان باي فصد هجمات الأتراك ولكنه انهزم أخيراً وحاول الهروب إلى الإسكندرية فلم ينجح لأن العرب أمسكوه وأرجعوه إلى السلطان سليم، فشنقه على باب زويلة فانتهت بموته دولة المماليك

الفصل الثامن

الحروب الصليبية

سبب الحروب الصليبية

كان سبب هذه الحروب ظلم الأتراك السلجوقيين للحجاج المسيحيين إذ كان أولئك الأتراك قد أخذوا بيت المقدس من العرب واستبدوا بأهلها، فقام رجل يدعى بطرس الناسك، وأخذ يطوف بأوروبا مستنهضاً همم المسيحيين لإشهار الحرب واستخلاص بلاد المقدس من يد الأتراك، وساعده في ذلك البابا أوريانوس وخلفاؤه حتى جردت أوربا تسع حملات عدا حملتين من الأولاد.

الحملة الأولى سنة ١٠٩٦ – ١٠٩٩ ب. م.

في سنة ١٠٩٦ اجتمع جيش كبير مؤلف من ٦٠٠.٠٠٠ مقاتل بقيادة جودفري بوبون. وكان خليطاً من الإيطاليين والفرنسيين والنمساويين وغيرهم من سكان أوربا، فلما بلغوا الشرق حاصروا مدينة أنطاكية تسعة أشهر حتى سقطت في أيديهم ثم فتحوا أورشليم عنوة وأنشأوا فيها مملكة مسيحية وجعلوا جودفري ملكاً عليها، واستمرَّت هذه المملكة ثمان وثمانين سنة إلى أن تغلب عليها صلاح الدين في سنة ١١٨٧.

الحملة الثانية ١١٤٧- ١١٤٨ ب.م.

وفي أيام بلدون الثالث (وهو الملك الخامس من ملوك الصليبين في بلاد المقدس) ضعفت شوكة الإفرنج وقلَّت سطوتهم، فتغلب المسلمون عليهم واسترجعوا منهم أرفا وبعض الأماكن الأخرى. فاستغاث بلدون بأهالي أوروبا، فأمدوه بنجدة عظيمة تحت قيادة كونراد الثالث ملك جرمانيا ولويس السابع ملك فرنسا، ولكن جيوش المسيحيين كانت مؤلفة من أوباش أوربا وزعانفها ولذلك كانت عاقبة هذه الحملة الفشل

وفي سنة ١١٨٧ ب.م. أشهر السلطان صلاح الدين حرباً على الإفرنج، فافتتح القدس وسمح للناس أن يخرجوا منها بعد دفع فكاك فانتهت سلطة المسيحيين بذلك في القدس.

الحملة الثالثة ١١٨٩ — ١١٩٢ ب.م.

كانت الحملة الثالثة بقيادة فيليب ملك فرنسا وفريدريك ملك جرمانيا ورتشارد ملك إنكلترا (الملقب بقلب الأسد) وغيرهم من الأمراء، فأقلعوا في مائتي سفينة إلى فلسطين، وعند وصولهم إلى صور (وكانت المدينة الوحيدة الباقية يومئذ في أيدي الصليبيين) زحفوا منها إلى عكا وحاصروها سنتين. وافتتحوها بعد حرب طائلة. ثم زحف رتشارد على عسقلان وهي قريبة من عكا؛ فوافاه صلاح الدين بثلاثمائة ألف مقاتل وانتشبت بينهما موقعة هائلة دارت فيها الدائرة على صلاح الدين، فانهزم بعد أن فقد عدداً عظيماً من جيشه، واستولى رتشارد على عسقلان وباقي

المدن اليهودية. أما صلاح الدين فالتجأ إلى القدس وحصنها، فزحف رتشارد لافتتاحها فخاف الأهالي واعتراهم الرعب بسبب ما كانوا قد سمعوا عن بطش رتشارد قلب الأسد، إلا أنه لم يستطع افتتاحها بسبب الأمطار والمشقات؛ فعقد مع صلاح الدين صلحاً سُمح بموجبه للمسيحيين بزيارة الأماكن المقدسة بدون دفع جزية.

الحملة الرابعة سنة ١٢٠٣ ب.م.

جهز البابا سلستين الثالث هذه الحملة ولكنها لم تصل إلى بلاد المقدس بل اشتبكت بمحاربة ملك الروم في القسطنطينية. وتغلبت عليه وأخذت منه الأستانة

حملتا الأولاد سنة ١٢١٣ ب.م.

كانت هاتان الحملتان أحزن جميع الحملات الصليبية، فإن ولداً راعياً من الفرنسيين أدعى أن الله أوحى إليه أن يجمع جيشاً من الأولاد الصغار ويذهب بهم إلى بيت المقدس لمحاربة المسلمين، فاجتمع لديه ٣٠.٠٠٠ ولدا أقلعوا من مرسيليا في عدة مراكب لم يصل منها إلى الإسكندرية إلاَّ خمسة، ولما بلغوا الإسكندرية بيعوا عبيداً. وبعد ١٧ عاماً استعاد البعض حريتهم بواسطة المعاهدة التي أبرمها الملك فردريك الثاني مع الملك الكامل.

أما حملة الأولاد الثانية فتمت بمسّاعي ولد يدعى نقولاوس جمع نحواً من ٢٠.٠٠٠ ولدا من ألمانيا وعبر بهم جبال الألب، فلما بلغوا جنوه أقنعهم رئيس الأساقفة هنالك بالعدول عن قصدهم، فأطاعه معظمهم وتفرق البعض الآخر يبحثون عن أعمال يرتزقون منها.

الحملة الخامسة سنة ١٢١٦ ب. م.

كانت هذه الحملة مؤلفة من مجر وجرمانيين، ولم يفلحوا في أول الأمر ولكن جاءهم في السنة التالية نجدة كبيرة فانتصروا في بعض المواقع، ولكنهم تركوا بلاد فلسطين لأسباب غير معلومة وتوجهوا إلى مصر فافتتحوا بعض مدنها، وعرض عليهم المصريون صلحاً مرضياً، ولكنهم رفضوا طمعاً منهم بافتتاح البلاد كلها، إلا أنهم انتشروا في وادي النيل واستمروا فيه حتى أضعفهم الزمان وقلة الوسائط فاضطروا أن يتنازلوا للمصريين عن فتوحاتهم ويرجعوا إلى فلسطين.

الحملة السادسة سنة ١٢٢٨ ب.م.

كان فريديريك الثاني ملك ألمانيا قد نذر على نفسه مساعدة الصليبيين، ولكنه أبطأ فحرمه البابا غريغوريوس التاسع فاغتاظ فريدريك وأشهر الحرب على البابا وأخرجه من رومية ذليلاً. ثم زحف على مصر فاضطر الملك الكامل (ابن سيف الدين) أن يعقد معه معاهدة أعطاه بموجبها القدس ويافا وبيت لحم والناصرة. إلا أن الصليبيين لم يكونوا راضين عن فريدريك بسبب ما فعله بالبابا فلم يعترفوا به.

الحملات الباقية

أما الحملة السابعة فكانت مؤلفة من فرنساويين وإنكليز وانتهت بتأييد الحقوق التي اكتسبها الصليبيون في الحملة السادسة وبنيل مدن جديدة، وأما الحملة الثامنة فقد قام بها لويس التاسع ملك فرنسا، ولكنه قبل أن يصل إلى فلسطين عرج على دمياط وافتتحها، ثم زحف على القاهرة إلا أن معظم جيشه هلك بالأمراض والجوع، فوقع هو ومن بقي منهم أسيراً في يد المسلمين وبقي في أسرهم إلى أن فدى نفسه بفكاك عظيم. وسار بباقي رجاله إلى أوربا. وبعد ذلك بنحو ١٥ سنة زحف الملك الظاهر بيبرس على بلاد فلسطين فأوقع بالمسيحيين وافتتح معظم المدن التي كانت لا تزال في قبضة الصليبيين فلما بلغت تلك الأخبار لويس ملك فرنسا جهز حملة جديدة في سنة ١٢٧٠ ب.م وهي الحملة التاسعة ففشلت وانتهت بانتهائها الحروب الصليبية بعد أن فقدت أوربا نحو مليونين من الأنفس في تلك الحروب الدموية وزالت آثار الصليبيين من فلسطين.

الفصل التاسع

الأتراك

الأتراك فصيلة من الشعب المغولي نزحت من موطنها الأصلي في أوائل القرن السادس الميلادي، وهم فرعان كبيران أولهما السلجوقيون وثانيهما العثمانيون. أما السلجوقيون فهم سلالة السلطان سلجوق الذي ظهر في أواسط آسيا، ومن أعظم سلاطينهم طغرك والملك شاه اشتهر بالحروب والغزوات، ولما توفي الملك شاه تضعضعت أحوال مملكته فظهر في القرن الثالث عشر السلطان جنكيز خان المغولي وغزا السلجوقيين،واتفق أن فصيلة أخرى من الأتراك ساعدت السلجوقيين بقيادة السلطان أرطغرل لرد غارة المغول ونالت جزاء ذلك أراض واسعة في آسيا الصغرى بقرب مدينة بروسة حيث ولد السلطان عثمان بن أرطغرل في سنة ١٢٥٨ فدعيت القبيلة باسمه.. وفي أيام السلطان أورخان بن عثمان خضع الجزء الشمالي الغربي من آسيا الصغرى خضوعاً تاماً للأتراك العثمانيين وهو (أي السلطان أورخان) الذي أنشأ جيش الإنكشارية ومعظمه من أسرى النصارى الذين أسلموا، وفي أيام السلطان مراد الأول (ابن أورخان) افتتح الأتراك ثراقية ومكدونية وأجبروا الصرب والبلغار على دفع الجزية إلا أن شعوب البلقان لم يهدءوا عن إحداث الفتن والثورات.. وفي سنة ١٤٢١ ب.م ارتقى السلطان مراد الثاني إلى العرش فحكم ثلاثين سنة حاصر الأستانة في خلالها، إلا أن ثورة في آسيا الصغرى

أجبرته على رفع الحصار. وكان البلقانيون قد ثاروا مرة أخرى بقيادة هنيادي (ويعرف بالفارس الأبيض) وفازوا ببعض الانتصارات، فاستعادت الصرب استقلالها وضمت الفلاخ إلى هنغاريا . وفي ١٤٤٤ ب.م تجددت الحرب وكانت نتيجتها إخضاع البوسنة والصرب مرة أخرى.

السلطان محمد الثاني سنة ١٤٥١ _ ١٤٨١ ب.م

ويعرف بالفاتح. غزا الأستانة في سنة ١٤٥٣ وافتتحها بعد حصار شديد، ثم غزا البلوبونيسوس والقريم والفلاخ ووصل إلى حدود هنغاريا. وفي سنة ١٤٦٧ ب.م افتتح ألبانيا وأخذ يستعد لفتح إيطاليا إلا أن الوفاة أدركته قبل إنجاز غايته وفي أيام السلطان سليم الأول وسليمان الكبير (١٥٢٠ _ ١٥٦٦ ب.م) بلغت مملكة الأتراك أقصى حدودها وضمت إليها مصر وهنغاريا

فهرس